بيرن السباعى

ست وستة

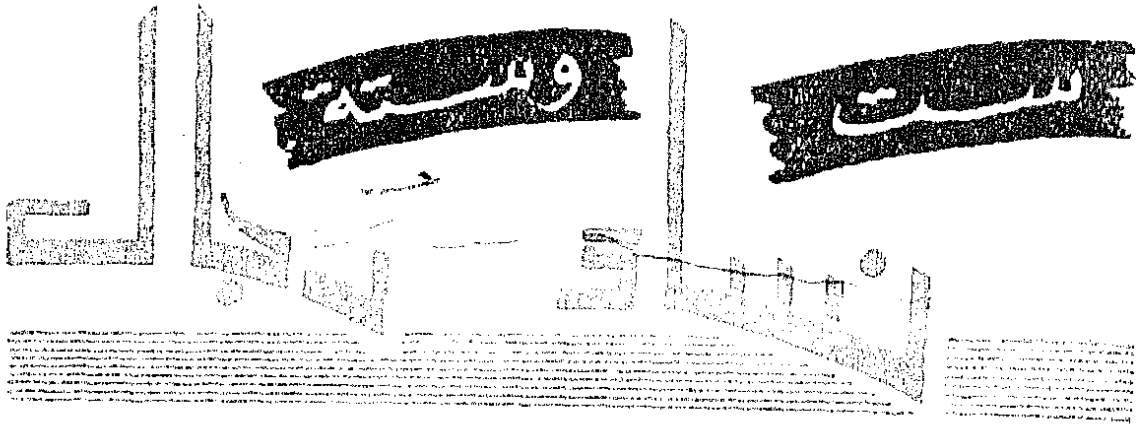

للمؤلف

أطيـــاف	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧	الناشر: دار التوزيع والطباعة والنشر طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر: مكتبة الخانجي طبع فى شركة فن الطباعة
نائب عزرائيل	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧	الناشر: دار التوزيع والطباعة والنشر طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥٢	الناشر: مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
اثنتا عشرة امرأة	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨	الناشر: مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥٠	الناشر: مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
خبايا الصدور	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨	الناشر: دار النشر العربية طبع فى دار الاحد ببيروت: لبنان
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر: مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
يا أمة ضحكت	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨	الناشر: مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥٠	الناشر: مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
اثنا عشر رجلا	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩	الناشر: مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر: مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
أرض النفاق	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩	الناشر: مكتبة النهضة طبع في مطبعة السعادة الكبرى
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥٢	الناشر: مكتبة النهضة طبع في مطبعة ٥٥

في موكب الهوى	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩	الناشر : دار الفكر العربي طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر : دار الفكر العربي طبع فى شركة فن الطباعة
من العالم المجهول	الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
هذه النفوس	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠	الناشر : دار الفكر العربي طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥١	الناشر : دار الفكر العربي طبع فى شركة فن الطباعة
إلى رحلة	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
	الطبعة الثانية سنة ١٩٥٢	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
مبكى العشاق	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠	الناشر : دار الفكر العربي طبع فى مطبعة الاعتماد
بين أبو الريش وجنينة ناميش	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٠	الناشر : مكتبة الخانجي طبع فى شركة فن الطباعة
أغنيات	الطبعة الأولى سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجي طبع فى شركة فن الطباعة
أم رتيبة	الطبعة الأولى سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
هذا هو الحب	الطبعة الأولى سنة ١٩٥١	الناشر : دار الفكر العربي طبع فى شركة فن الطباعة
١ - الأصل	الطبعة الأولى سنة ١٩٥١	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شر

بين الأطلال	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
السقامات	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢	الناشر : مكتبة الخانجى طبع فى شركة فن الطباعة
سُمّار الليالى	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢	الناشر : دار الفكر العربي طبع فى مطبعة الاعتماد
الشيخ زعرب	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢	الناشر : مكتبة الخانجى طبع في شركة فن الطباعة
نفحة من الإيمان	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢	الناشر : دار الفكر العربي طبع فى مطبعة الاعتماد
وراء الستار	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢	الناشر : نادى القصة طبع فى مطبعة روز اليوسف
ست نساء وستة رجال	الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢	الناشر : مكتبة الخانجي طبع فى شركة فن الطباعة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الغلاف رسم الفنان عبد العزيز صادق

صور الكتاب من رسم الفنان هليل

إلى « بيسا » و « اسماعيل »

لكل منهما « نصف رستة »

إليكم ست نساء وستة رجال . . تتمة للإثنتى عشرة امرأة والاثنى عشر رجلا . وبقية من هؤلاء وهؤلاء لم يتسع لها الكتابان السابقان .

وإنى لأذكر عقب ظهور كتاب اثنتى عشرة امرأة أن كتبت الدكتورة ابنة الشاطىء فى نقد الكتاب تقول ما معناه إنه كان أولى بى أن أقصر كتابتى على الرجال لأنى كرجل أدرى بفهم مشاعرهم وتحليل نفوسهم ، وأنه كان يجب أن أترك الكتابة عن النساء لواحدة منهن لأنها أعرف بخباياهن وأعلم بأحاسيسهن .

وصمت حينذاك . . ولم أحاول المكابرة وقلت لنفسى . . من يدرى . . ربما كانت على حق . ثم أصدرت بعد ذلك كتاب اثنى عشر رجلا . . فأقرته فى نقدها .

وكان الأولى بى بعد هذا ألا أعود إلى الكتابة مرة ثانية عن النساء وألا أتبع الاثنتى عشرة بست أخر . ولكنى مع ذلك غامرت بإصدار كتابى هذا . . لأنى أشعر فى نفسى أنى قد أكون أكثر فهماً للنساء من أنفسهن ، وأن التجارب تجعل من الرجل أحيانا مرآة تنعكس عليها صور النساء فتبدينهن أكثر وضوحاً من الأصل . بل إن المرأة نفسها لا أظنها — بغير انعكاسها على رجل — تصبح شيئاً حياً جياشاً بالأحاسيس ، مفعماً بالمشاعر . وقصة المرأة . . لا تكون

إلا والرجل فى حناياها ، وكذا قصة الرجل لا تنسج إلا والمرأة سداها . فإن كتبت عن ست نساء فأنا أكتب ضمناً عن ستة رجال .. وإن كتبت عن ستة رجال فلا أظننى أستطيع أن أمنع ستة النساء من التسلل وحشر أنفسهن بين السطور .

وثمة شىء آخر يحفزنى على الكتابة عن النساء . . وهو أن الدكتورة ابنة الشاطىء نفسها . . كتبت إلىّ رسالة خاصة بعد أن قرأت إنى راحلة تقول : إنها كانت تنتقد فيما سبق كتابتى عن النساء وإفراطى فى الكتابة .. ولكن بعد قراءتها لهذا الكتاب وجدت أنى أستطيع أن أكتب عنهن كما أشاء . وأن أفرط فى الكتابة كما أشاء .

وبعد . . أترك الحديث للدستة الجديدة تتحدث عن نفسها .

والسلام عليكم ورحمة الله . ؟

يوسف السباعى

للمؤلف

تحت الطبع

تمثيليات قصيرة

ساكنة الحنايا

فديتك يا ليلى

أساطـــير الأولين

موته لله

تطلب كتب المؤلف من :

مكتبة النهضة المصرية ، ودار الفكر العربى ، والخانجى بالقاهرة .

« النهضة السودانية بالخرطوم .

« المثنى ببغداد .

دار المعارف ببيروت .

« اليقظة العربية بدمشق .

« الكتاب بالدار البيضاء .

كة المكرمة

امرأة سعدون

أجل يا أخت الروح ، لقد كنت نبيلة ثرية أرستقراطية فى بلد المظاهر والغرور . . وكنت أديب بين الناطقين بالضاد .

ألم أقل لك . . كنت فى السماء . . وكنت فى الأرض ؟

ودع الصـــبر محب ودعك

ذائع من سره ما استودعك

أما الصبر يا توأم الروح فقد استعصى وتعذر .

يوم ولّيت .. ولّى . . وساعة ودّعت ودع . . وما عاد يغنى عن فرقتك صبر ، أو يفيد فى بعدك عزاء .

أما السر الذى استودعتك . . فبرغمى يا حبيب يذاع .

أنا إن كتمت فى نفسى الجوى . . وحبست فى صدرى اللوعة .. فما أستطيع كتم أنفاس تستعر ، وزفرات تلتهب .

إذا حبست الدمعـــة فى المآقى ، انطلقت الآهة من الحنايا ، وإذا حبست الآهة .. انسابت الدمعة .

وكيف أعيش يا حبيب الروح بعدك بغير آهة ، وبغير دمعة ؟

السر الذى استودعتك . . ذائع يا حبيب برغمى . . تنم عنه الآهة ، وتفضحه الدمعة . . وبين الدمعة والآهة ، يتململ اللسان ويتلهف على أن يفضى به ويبوح .

وبين التململ واللهفة .. اتركه ينطلق .

أفلا أقل من عود إلى الذكرى !! هى عزاء إلى حين ؟ !

* * *

لقيتك يا حلوة وبيننا ما بين السماء والأرض . . أنت فى السماء ، وأنا فى الأرض . . مجازاً وفعلا . . أى والله . . كل الظروف التى أحاطت بنا فى أول لقاء ، جعلتك سماوية وجعلتنى أرضياً .

كنت تتبوئين إحدى مقصورات سباق هليوبوليس ، كما يتبوأ القمر أريكة السماء . . ووجدت بينك وبين القمر شبه شديد . . إذا أشرق أحدكما لم ينافسه فى سمائه كوكب ، تنساب منه الأشعة رطبة ندية ، تغرق العباد بنور بلا حر ، ونشوة بلا خمر .

وكنت أنا من عباد الله الذين يتقاسمون النور ويتشاركون النشوة ، قانعين ناعمين ، متجولين فى الأرض . . أرض السباق الحافلة العامرة ، غادين رائحين بين « بادوك » الخيل وبين مدرجات السباق ، حائرة عيونهم . . بين الجماد وبين الخرد الغيد

وهكذا كان أحدنا فى السماء ، والآخر فى الأرض . . شكلا ووضعاً وفعلا . . أما مجازاً فقد كان بيننا أبعد مما بين السماء والأرض .

كنت نبيلة ثرية أرستقراطية بكل ما فى تلك الكلمة من معان . . وكنت . . ماذا كنت ؟ !

ماذا أقول ؟ . . وأنا ما عرفت فى يوم من الأيام من أكون ؟

كاتب وأديب ؟ !

لو كنا فى غير هذا البلد ، لقلتها بملء فمى ، ولانتظرت أن يحنى لى الناس هاماتهم تحية وإجلالا . . أما هنا والأديب المجرد لا يعرف كيف يأكل عيشه . . أما هنا والبلد يعترف بالجزار والبدال واللحاد والكناس ، كأصحاب مهن . . ولا يعترف بالأديب . . أما هنا والأديب لا يجسر أن يكتب على بطاقته « أديب » ، فكيف أقول إنى أديب ؟

ومع ذلك فلا مناص من الاعتراف بها .

لأننى فعلا . . لست سوى ذلك .

أجل يا أخت الروح ، لقد كنت نبيلة ثرية أرستقراطية فى بلد المظاهر والغرور . . وكنت أديب بين الناطقين بالضاد

ألم أقل لك . . كنت فى السماء . . وكنت فى الأرض ؟

وكان أحرى بى فى ذلك اليوم ، أن أنصرف عنك كما انصرفت من قبل فى كل مرة لمحتك فيها من بعد . . وأن أنشد لنفسى ذلك القول الذى أعزى به عنك نفسى كلما لقيتك :

« لا ترفعاً أنصرف عنك ولا كبرياء ، ولا جحوداً عن حسنك ولا جفاء . . بل إن جبار اليأس قد خرج بفؤادى عن دائرة نفوذك وعلا به على بسطة سلطانك .

أيتها الغادة : كل ما فى الوجود يذوب فى ألحاظك إلا يأسى فإنه كالثلج الجامد على رأس الطود تغازله أشعة الشمس طول الأبد فلا يشعر .

وقفت منى على قيد خطوتين وبينى وبينك ما بين إبليس والرحمة .. فكأننا نجمان تجاورا فى عين الناظر وبينهما بعد السماء عن الأرض وكأنك تنظرين إلى ميت ، يفصلك عنه الوقت ، والوقت مالا يقدر » .

كان حرياً بى أن أنصرف عنك بهذا القول ، لولا أن أتاح الله لى من رفعنى من وهاد الأرض إلى علياء السماء . . فإذا بى أجد نفسى فى غمضة عين أجلس بجوارك .

لقد صعدت إلى السماء . . بغير فعل خارق ، لا موت ، ولا معجزة .. بل كانت المسألة أبسط مما أتصور .

رأيت فى مقصورتك زميل قديم من أبناء الذوات . . كان يجاورنى فى إحدى سنوات الدراسة ، ورفع يده لى محيياً عندما التقى بصرانا وأشار إلىّ بالصعود .

ولم أتردد ثانية رغم ادعائى الترفع والإباء ، واحتقار

هذه الطبقة من ابناء الذوات . . بل شققت طريق بين الأجساد المتراصة حتى وصلت إلى المقصورة .

وتصافحنا ودعانى إلى الجلوس فلبيت الدعوة وقام بدور التعارف بينى وبينك ، فأحنيت رأسك إحنامة تكاد لاتحس ومنحتنى نظرة بطرف عينيك .

ومع ذلك فما أحسست بخذلان ولا ضيق ، فقد كان جلوسى على مقربة منك كاف لكى يجعلنى أغض الطرف عن كل إهمال منك أو إعراض .

كنت أحس بنشوة ممتعة ، نشوة أطاحت بذلك اليأس الذى كان يخيم على نفسى كلما لقيتك أو نظرت إليك .

وانتهى شوط السباق الدائر وقتذاك والذى كان يستر عى كل التفاتك ، والذى جعلك تلقينى بذلك الإهمـــال والإعراض لقطعى عليك استغراقك فى مراقبتـه ، ثم وجدتك تضعين المنظار بجانبك وتصفقين بيديك طرباً . . وتلتفتين إلينا صائحة وقد استخفك الطرب :

ـــ برافو .. هذه أول مرة أكسب فى هذا الموسم ، لقد كان حظى سيئاً من أوله ، ولكن هذا الكسب سيعوض لى كل الخسارة السابقة ، فما من أحد قد لعب هذا الحصان ، إنه « أوستيدر » ، ويبدو لى أن الريال سيأتى بعشرة جنيهات .

ثم نظرت إلىّ ووجهت لى الحديث :

ـــ إن وجودك سبب لى حظاً سعيداً . . يجب أن تبقى معنا إلى نهاية السباق حتى أستمر فى الربح .

وكان الأمر الطبيعى أن يسعدنى قولك هذا ، ولكنى ـ وأنا مخلوق غريب لا أفهم نفسى فى كثير من الأحيان ـ وجدتنى أصاب منه بضيق .

وقد يكون السبب الأول لهذا الضيق هو أنك قلت كل حديثك باللغة الإنجليزية الجيدة السليمة النطق .. أما السبب الثانى فهو إحساسى بأننى أصبحت عندك مجرد تعويذة تجلب لك الحظ .

أما عن السبب الأول فقد ضايقنى لأنه سبب لى يأساً جديداً ، فقد وجدت سلاحى الوحيد الذى كنت آمل فى أن أغزوك به ، وهو سلاح التفوق فى الكتابة والأدب ، قد فل وأصبح لا يجدى معك . . فقد أدركت من لهجتك فى الإنجليزية ، أنك لا تستطيعين الحديث بالعربية . . بله قراءة أدبها .

وأنا رغم ماقلت عن ضياع قيمة الأدب فى هذا البلد ، شديد الاعتداد بنفسى ـــ على الأقل فيما بينى وبين نفسى ـــ كأديب . . شديد الغرور ، شديد الثقة ، أحترم نفسى

ككاتب أكثر مما احترمها كأى شىء آخر ـ وقد يكون هذا هو ديدن كل كاتب وأديب ـ وأشعر دائماً أن سلاحى الأول فى التفاخر والزهو هو كتابتى وأدبى ، رغم أنها أشياء لا تقدر كثيراً فى هذا البلد .

وهكذا خذلت عند ما وجدت أن بينك وبين أدبى حجاب كثيف من جهلك باللغة العربية ، ولم يعد لدىّ أى أمل فى أن تكونى قد قرأت لى ، أو سمعت بى .

أما عن ضيقى لأنى شعرت أنك قد جعلتينى تعويذة ، فقد كان مرجعه أيضاً إلى ذلك الغرور الذى أحسه فى نفسى . فرغم يأسى منك وإحساسى بالمدى الشاسع بينى وبينك . . كنت أود — إذا ما التقينا — أن تجدى فى ميزة فى الشكل أو فى الخلق أو فى الثقافة ، أكثر من ميزتى كتعويذة تجلب الحظ .

وبعناد الحمقى المغرورين ، وجدتنى أنهض لأنصرف . . ورغم إلحاحك علىّ بالبقاء صممت على مغادرتك مدعياً أنى على موعد .

وتركت السباق سائراً على قدمى وسط آلاف العربات المكدسة أمام الميدان .

وعندما خلوت لنفسى بعد ذلك ، عجبت لما فعلت واتهمت

نفسى بالجنون .. كيف تلحين علىّ بالجلوس معك فأرفض ؟

كيف يحدث منى هذا ، وأنا الذى لا يسعدنى فى الحياة أكثر من نظرة إليك من بعد ؟ وماذا ضايقنى منك ؟ !

حديثك بالإنجليزية ؟ وما ذنبك ، وأى جريمة فى ذلك؟

وماذا أغضبنى من قولك أنى جلبت لك الحظ ؟ ! ألم يكن هذا خيراً من أن تقولى أنى جلبت لك سوء الحظ ؟

وماذا كنت أنتظر منك ؟ أتستبقينى لأن جمالى قد سحرك . وأنك لا تطيقين فرقتى ؟

يالى من غر أحمق مأفون ؟ لقد أضعت فرصة العمر؟

وقضيت ليلتى حزيناً يائساً ، وظللت مغرقاً فى الضيق ، حتى ظهر اليوم التالى عندما تبين لى أن فرصة العمر لم تضع بل هى مقبلة مؤكدة ، فقد أنبأنى صاحب الجريدة التى أعمل بها أنه قد وصلته دعوة لإحدى حفلات الفروسية وسألنى أن أذهب مندوباً عن الجريدة .

ولم أتردد فى القبول ، فقد كنت أعلم أن مثل هذه الحفلات لا تفوتك ، ووجدت الفرصة قد تسنح للقائك ، والحديث معك .. لاسيما وأنك بلا شك ما زلت تذكرينى من لقاء الأمس وتذكرين أنى أجلب لك الحظ .

ولقيتك هناك وأسعدنى الحظ بالجلوس بجوارك فى حفلة

الشاى التى أقيمت فى النهاية . . ودار بيننا الحديث فعرفت من أنا وماذا أعمل ، ولم تبخل علىّ ببعض كلمات الإعجاب بالأدب والأدباء رغم أنك لم تقرئى لى .

ولا أكذبك القول .. إن هذه الجلسة بيننا كانت بداية إحساس جديد لك فى قلبى ، فقد تبينت خلال الحديث معك أنك مخلوقة متواضعة لطيفة ذكية رقيقة .

وقلت لى إنك قرأت رباعيات الخيام بالإنجليزية . . وأنك ترغبين فى قراءتها بالعربية . . فوعدت بإحضارها إليك .

وهكذا بدأت الصلة تتوطد بيننا بواسطة عمر الخيام ، فقد أحضرت لك الترجمة العربية ، ولكنك لم تفهمى منها حرفاً واحداً ، فتطوعت بقراءتها وشرحها لك .

وبدأنا جلساتنا فى خلوات ممتعة هنيئة ، خلوات ملؤها الشاعرية والأوهام اللذيذة والحلم الجميل وأخذت أشرح لك :

غرد الطير فنبـــه من نعس
وأدر كأســـك فالعيش خلس
سل سيف الشمس من غمد الغلس
وانبرى فى الشرق رام أرســـلا
أسهم الأنوار فى هام القـلاع

وأقبل كل منا على صاحبه بلهفة ونهم . . أنا بالقراءة والشرح واستراق النظر إلى وجهك الساحر الوضاء . . وأنت بالاستماع والشرود والذهول .

وكنت أسير فى طريق حبك بسرعة الصاروخ . . حتى بلغت نهايته . . وبدا لى أنك لاشك سائرة فى نفس الطريق وأننا سنلتقى فى النهاية ويفضى كل منا بمشاعره للآخر .

ولكنك نكصت على عقبيك فجأة قبل أن تبلغى النهاية .

لست أدرى لِمَ ؟

أتراك لم تنظرى قط إلى المسألة على أنها مسألة حب جاد وأنك كنت تتسلين بى وبالخيام .. وأنك كنت تضيعين بعض الوقت فى شىء جديد عليك ، وأنك سرعان ماملتيه؟

هل كنت لديك مجرد نوع من التغيير ؟

الله وحده أعلم .

أما الذى أعلمه .. فهو أنك بدأت تخلفين المواعيد . . وبدا لى أنك تتهربين من لقائى .

وأخذت — بدافع الحب الجنونى — أحتج فى الرجاء وألح فى محاولة اللقاء ، حتى صدمت منك صدمة ردتنى إلى صوابى وأعادت إلىّ كبريائى وذكرتنى بكرامتى .

كان ذلك فى حفلة ساهرة طال بنا السهر فيها . . حتى

رأيتك لأول مرة . . ثملة تترنحين . . وسمعتك تصيحين بى ساخرة :

ـــ لِمَ لا تثقل علينا بأشعارك أيها الأديب ؟

ثم التفتت إلى الجمع الصاخب ، وأردفت بنفس اللهجة الساخرة :

ـــ هذا الأحمق المسكين كان يحاول أن يوقعنى فى حبه بقراءة الشعر .. تصوروا هذا .. تصوروا .. أنى أحب هذا المغرور الساذج .

ولست أذكر أنى ضربت امرأة فى حياتى قط .. حتى ولا خادمة . . . ولكنى وجدت مراجل تغلى بالغضب .. ووجدت كل ما بى من حلم وهدوء ورقة طبع يتبدد فلا يضحى له أثراً .

ولم أشعر إلا ويدى ترتفع وتهبط على وجهك الجميل النبيل بصفعة مدوية .

وغادرت المكان مرتجفاً من الغضب تاركاً الجميع مغرقين فى الصمت والدهش ، وعند ما وصلت إلى البيت ارتميت على الفراش منهاراً . كنت أشعر بحزن شديد .. فقد عزّت علىّ نفسى أن تهان بين طبقتك العالية الوضيعة .. العالية إسماً ، الوضيعة فعلا ..

لقد كنت أشعر أنى المسئول عما حدث فقد كان أولى بى ألا أزج بنفسى فى وسطك الفاسد المغرور .. وأن أربأ بها عن الهوان بين هؤلاء الرقعاء المخنثين .

يا للحمق والغباء ؟ ! !

كيف صوّر لى الوهم .. أنك شاعرة مرهفة الحس .. وكيف أضعت وقتى فى قراءة ما قرأت وشرح ما شرحت ؟ ومرت الأيام بعد ذلك وأنا أحاول تضميد جراحى .. جراح القلب المطعون .. والكبرياء المهيضة ..

وحاشاى أن أزعم أنى ضمدت جراحى ببساطة . . وأننى لفظتك بسهولة .. أو لفظ النواة ..

لقد كانت عملية نسيانك واحتمال هجرك شاقة مضنية .. ولكنى تحملتها بجلد .. حتى كدت أنساك ..

ولكنك عدت تنكئين الجرح .. وترسلين لى مع بعض الأصدقاء من يخبرنى أنك تودين رؤيتى .

وبدا لى أنك تحاولين الثأر .. وأنك مصممة على رد الصفعة التى هويت بها على خدك النبيل فى تلك الليلة .. فلم أرد أن أعطيك الفرصة .. وصممت على ألا ألقاك قط ..

وعادت الوساطة فى الرجاء .. فزادت بى الشكوك

وأيقنت أنك لا بد معدة العدة لرد الصفعة . فزدت إلحاحاً في القطيعة .

لقد كنت أعتبر كل ما بيننا قد وصل إلى نهايته وأنه لا فائدة في أن آمل في مثلك خيراً بعد ما كشفت عن نفسيتك .

وبلغني بعد ذلك أنك مريضة وأنك تطلبين أن أحضر لك رباعيات الخيام لأقرؤها لك .

وضحكت ساخراً .. ورددت على من أبلغني بذلك الرد الشهير الساخر « تاني ؟ ! ! » .

لقد كنت مصمماً على أن أقلب حبي لك كرهاً .. وكنت أحس أني أفلحت في ذلك .

حتى وصلتني منك رسالة .. قلبت مشاعري رأساً على عقب .. فتحت الرسالة فإذا بها مكتوبة بالإنجليزية وإذا بها ما يلي :

« . . .

أعذرني إذا ما كتبت إليك بالإنجليزية .. فاني أريد أن أكتب لك أشياء دقيقة .. لا أظنني أستطيع أن أعبر عنها باللغة العربية .. وليس الذنب ذنبي إذا لم أستطع

ذلك .. بل ذنب أولئك الذين علموني .. وجعلوني بطريقة تعليمهم أشبه بأجنبية غريبة في بلدي ...

أجل .. إن الذنب ليس بذنبي .. وليس أدل على ذلك من أن تعرف أنه عندما ترك لي الأمر .. أني أقبلت على قراءة العربية ... وأنني رغم ضآلة معلوماتي فيها .. قد قرأت جميع مؤلفاتك بها .. وليس أسهل عليّ من أن أثبت لك ذلك ... فأسرد لك رأيي فيها وملاحظاتي عليها .

ولكن لا أظن هذا وقته ... بل يكفي أن تصدقني وتثق في قولي .. وإلا ذهب كل كلامي سدى .. وضاعت محاولتي أدراج الرياح .

إني أريد منك الثقة بي وتصديق كل ما أقول .

ولن يزيد ما أقول عن بضع كلمات :

إني أحبك .. وأريد أن أراك .

راقدة كما أنا مسجاة على فراش المرض .. وبجواري كوم مكدس من كتبك التي التهمتها واحداً .. واحداً .. وأنا التي كنت أكاد لا أقرأ الصحف والمجلات .

راقدة .. متعبة .. منهكة الأعصاب .. خائرة القوى .. قد ألح عليّ المرض .. لا يكاد ذهني يذكر سواك ..

ولا تكاد عيني — مفتوحة أو مغمضة — تبصر غيرك .

لست أدرى كيف حدث لى . . هذا ؟

أهى كتبك .. وطريقة تفكيرك .. وفيض مشاعرك ؟ .

أهو المرض الملح الذى تركنى أشبه بالصرعى ؟ .

أهى الذكريات الحلوة الهادئة الشاعرية ؟ .

أم تراها الصفعة التى أدميت بها خدى وأعدتنى بها إلى صوابى ؟ .

لست أعتب عليك .. فقد تقادمت مرحلة العتاب .. وبات كل ما أحسه لك .. لهفة عليك .. وحنين إليك .

لقد صنعت منى مخلوقة جديدة .. أو أعدتنى إلى معدنى الطيب وأزلت من نفسى شوائب الوسط الخبيث الذى أحيا فيه .

نفسك الطيبة ، وخلقك القويم ، وكتابتك العجيبة ، وصفعتك وهجرك ... كل ذلك صهرنى وطهرنى .

إنى أحبك .. وأريدك .. لنبدأ معاً عهداً جديداً .

ولا أظنك تخذلنى .. وأنت الرفيق الكريم .. بعد كل ما قلت لك .

أرجوك .. تعال . »

* * *

ولم أخذلك .. فقد صفحت عنك وسعيت إليك بعد أن أذابتنى رسالتك . ولكنك أنت التى خذلتينى فرحلت . قبل أن أصل .

لقد أودت بك العلة ، فلم تمهلك حتى أراك .

لقد تعجلت الرحيل يا منية النفس . فلم تنتظرى حتى تسمعين استغفارى وتبصرين ندمى على عنـــادى وعلى هجرك .. لقد دعوتنى للمجىء .. فماذا كان عليك لو انتظرت وصولى ؟ !

فيمَ التعجل .. يا حلوة الروح .. وأنت الداعية اللهفى المتشوقة ؟

وإلى أين يحملونك هؤلاء القساة الغلاظ الأكباد ؟ ! .

أهكذا بت لا أملك لك إلا خطوات قصار ... أسيرها وراءك وسط هذا الحشد من الباكين ؟ !

أهكذا لا يملك عابدك إلا جلسة صامتة أمام قبرك .. يكتم لوعته ويحبس دمعه .. ثم يعود فى بهمة الليل كالأشباح السارية مستغفراً نادماً .. يحرقه الشوق .. ويلهبه الأسى .

يقرع السن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطا إذ شيعك

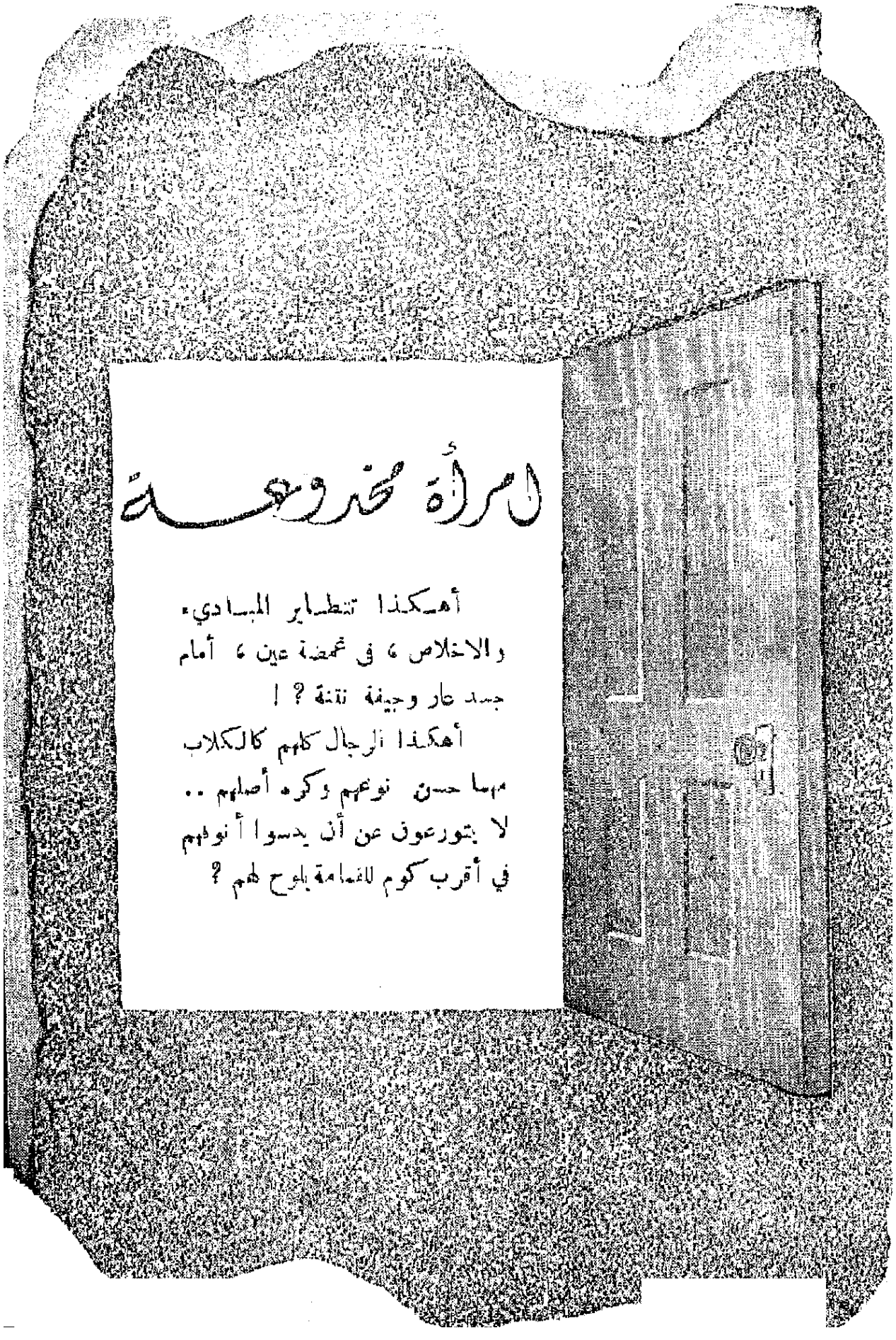

امرأة محدوعة

أهكذا تتطاير المبادىء
والاخلاص ، فى غمضة عين ، أمام
جسد عار وجيفة نتنة ؟ !
أهكذا الرجال كلهم كالكلاب
مهما حسن نوعهم وكرم أصلهم ..
لا يتورعون عن أن يدسوا أنوفهم
في أقرب كوم للقمامة بلوح لهم ؟

سيدى العزيز

من مجيرى من يأس قاتل وخذلان مميت ؟ .

إنى أكتب إليك ، وبجسدى رجفة وبقلبى حرقة . . ولا أدرى وأنا أكتب ، لِمَ أكتب ، ولا ماذا سأكتب .. ولكن يبدو لى أن الكتابة قد تسكت الرجفة وتطفىء الحرقة ، ولو إلى حين .

دعنى أسألك . . سؤالا يدور فى رأسى ، ويلح على نفسى . سؤالا .. يخيل إلىّ أن على الإجابة عنه يتوقف تقرير مصيرى وتغيير حاضرى ، واختيارى للسبيل الذى سأسلكه فى مستقبل حياتى .

أجبنى بصراحة . أجبنى كرجل .. مجرد رجل .. دع عنك فلسفة الكتابة ، ودع التعقيد والالتواء .. قل لا ، أو نعم .

هؤلاء الرجال . . هل كلهم من نفس المعدن الخبيث ، والطينة القذرة . . ؟

لا تثر ولا تغضب فتندفع لتدافع عن جنسك . . الجنس الوضيع الحقير .. الوالغ فى كل إناء ، الناهش من كل جيفة ، الشارب من كل مستنقع قذر ، الطماع الخداع ، الخائن الأشر .

لا تندفع فتقول لا . . ولا تصيبك الحمية فترد

على سبابى بأقذع منه . . فما قصدت به سباباً . . بل هو مجرد وصف . . لم أجد خيراً منه . . لأصور نظرتى إلى جنسكم . . الجنس السافل !

قبل أن تجيب إستمع إلى قصتى ، وأفهم لِمَ أسأل سؤالى هذا . . ؟ وتأكد إننى لا أتمنى فى حياتى شيئاً أكثر من أن تجيب بلا . . وأن تقول لى . . إنه مازال على الأرض من بين هؤلاء الرجال من هو أطيب معدناً وأنقى طينة وإن هذا هو كل مابقى لى من أمل فى الحياة ، ورجاء فى المستقبل .

تبدأ قصتى بداية عادية جداً كما تبدأ قصة كل زوجة . . رزقها الله — كما يقولون — بالعدل . . ووفقها إلى زوج طيب .

ولست أريد أن أضيع الوقت فى سرد تفاصيل لاأشك فى أنها ستنطبق على المئات ، بل الألوف ، من الزوجات غيرى . . والتى لا أظنها تعطينى طابعاً مميزاً ، ولكن يبدو لى أن من الخير أن أعطيك كروكياً سريعاً يعينك على تقدير موقفى وفهم مشاعرى .

أنا ابنة أحد موظفى الحكومة . . موظفاً يعتبر إلى حد ما كبيراً . . وإن كان دخله إذا ما قورن بعدد أفراد أسرته الغنية بالأبناء لا يكاد يجعل منها أكثر من أسرة

متوسطة تقطن فى شقة بالإيجار ، وتصرف الدخل عن آخره بين الملابس ومصاريف المدارس ، واللحمة والخضار .

وكان سوقنا ـ أنا وأختى ـ فى الزواج رائجاً . . فقد كنا نتمتع بكل مواهب الزواج من سمعة حسنة ، ومظهر جميل ، وعائلة طيبة ، وأب ذى مركز محترم .

وهكذا تسربنا ، مع العرسان ، الواحدة تلو الأخرى ، وخرجت بدورى مع رفيق العمر تاركة دار أبى إلى حيث أضحيت أنانفسى ربة دار .

ولا أكتمك القول . . إنى لم أر فى زوجى فى بادىء الأمر مايسمونه فتى الأحلام ، ولم يصادف منظره هوى فى نفسى ، ولكنه مع ذلك كان ـ على بعضه ـ مقبولا . . وكانت مجموعة مزاياه لاتدع مجالا لفتاة مثلى فى التردد فى قبوله .

كان شاباً ذا شهادة عليا وذا عمل حكومى يتناسب مع شهادته . . متوسط القامة ، نحيل الجسم ، أسمر البشرة ، ليس به ما يلفت وليس به ما ينفر . . بادى الهدوء والسكينة ، أميل إلى الصمت والإطراق والحياء . . وعند ما سأل أبى عنه أنبىء بأنه نموذج لحسن السير والسلوك .

هكذا كان زوجى عندما قررنا قبوله . . وعندما خرجنا من الدار معاً لنبدأ حياتنا المشتركة . . ولم أكن وقتذاك

أحس بفرحة مطلقة . . بل كانت فرحتى قلقة متشككة مما يخبئه لى الغد المجهول ، وكان يتملكنى شعور المطبقة بيدها على « بخت » توشك أن تفتحه لترى مابه .. لا فرق بينى وبينها سوى أنى كنت أنتظر الأيام لتفتح لى بختى . . وترينى أى مخلوق قد ساقه القدر إلىّ لأشد نفسى معه . . وأقرن حظى بحظه ، ومستقبلى بمستقبله مدى الحياة .

وبدأنا الحياة معاً ، فى شقة فى إحدى عمارات مصر الجديدة القائمة على أطرافها والتى لا تزيد شققها على ست أو سبع .. وأخذنا ننسق الأثاث فى الغرف ونرص الأصص فى الشرفات حتى بدت الشقة المتواضعة ذات الثلاث غرف وكأنها قصر منيف ، وأحسست فيها بحلاوة الاستقرار والهدوء .

ومرت بى الأيام تحمل لى مزيداً من هدوء ومزيداً من استقرار ، وتكشف لى البخت المخبأ .. يملؤنى رضا وهناء .. وبت أشعر أنى امرأة موفقة سعيدة الحظ . فقد وجدت فى زوجى إنساناً لا تطمع المرأة فى خير منه .

لقد غير الزواج نظرتى فى الزوج . . فقد كنت — وأنا فتاة — أرى الزوج المثالى فى رجل طويل القامة ، عريض الصدر ، حلو التقاطيع ، جذاب الملامح .. كنت أراه خليطاً محبباً من نجوم السينما . يملك عربة فخمة يجلسنى فيها بجواره .

ويحملني بها كل يوم لنجوب الطرقات حتى يستقر بنا المقام في بقعة خلوية نتناجى فيها ونتبادل أحاديث الهوى . . ثم يعود بي في النهاية إلى فيلتنا الأنيقة المليئة بالخدم والحشم .

تلك كانت أوهامي ، وأنا فتاة أحيا على عذب الأوهام .

فلما تزوّجت علّمتني التجربة أن أوهامي كانت عبث صبية وأرتني أن الزوج المثالي شيء آخر لاصلة له بما كنت أتخيل ، وإنه لا ضرورة هناك لأن يكون عريض الصدر ممدود القامة ، ولا ضرورة أن يكون صاحب عربة أو صاحب فيللا ، بل أهم من ذلك كله . . أن يكون شريكا جيداً .

إن الزوج المثالي هو الشريك الذي يقوم بنصيبه في الشركة الزوجية خير قيام .. ولا أظن هناك شركة يمكن أن تفلح أو يقوم لها بناء على غير الحب والوفاء والثقة المتبادلة، وحسن التفاهم .

إن الزوجة بعد الزواج لا تتأمل كثيراً تقاطيع زوجها، ولا تقضي الساعات في قياس طوله أو عرضه . . ولكنه يسعدها جداً أن يدخل عليها الزوج ببسمة حلوة ووجه بشوش . . وأن يشعرها أنه لم ينس التوافه التي طلبتها منه ، وأن ينظر إليها بعين الرضا . . كأن الأرض لم تنبت خيراً منها . . !

يسعد الزوجة أن يكون هناك توافق فى المشارب بينها وبينه . . وأن يكون هناك تماثل فى الطباع . . وأن يحب ما تحب ويكره ما تكره .

إن الزوج المثالى هو الذى يجعل من زوجته وبيته بغيته فى الحياة . . والذى يشعر مخلصاً أنهما خير ما يسبب له السعادة والهناء . . فهو يقصدهما قريراً راضياً .

الزوج المثالى هو الذى لا يفور ولا يثور لتوافه الأمور ، والذى يتغاضى عن هنات الدار ويلتمس الأعذار .

هكذا أضحى الزوج المثالى فى نظرى .. بعد أن تزوجت .

وهكذا أيضاً كان زوجى .

أفلا يحق لى أن أحمد الله وأن أعتبر نفسى امرأة سعيدة الحظ . . ؟ !

ومن طبيعة الإنسان فى هذه الحياة . . أن يتعود منها الشىء الطيب حتى يضحى لديه غير ذى قيمة . . وأن يتعود النعمة فلا يعود يحس بها نعمة . . بل يراها أمراً طبيعياً . . ولا يعود يشعر منها بلذة النعمة . . ولا يفكر قط فى أن يحمد الله عليها . . بعد أن اعتادها حتى نسيها .

ولكنى لم أكن كذلك .. لا لميزة فى عن بقية البشر . . بل لأنى كنت أجد دائماً ما يذكرنى بما أنا فيه من نعمة ،

فلم أعتدها ولم أنسها قط .

إن المقارنة هى الأصل فى إحساسنا بالمتعة أو الشقاء ، فنحن إذا أحسسنا بالشبع ثم رأينا كل من حولنا شبعان لم نحس كثير متعة . . وإذا أمسكنا رغيفاً ووجدنا مثله فى يد كل إنسان .. لم نشعر بميزة الرغيف ، ولكننا إذا ملكنا الرغيف ورأينا الناس حولنا يتضورون جوعاً ويتلهفون على الكسرة . . . أحسسنا بنعمة الرغيف . . وعرفنا قيمته.

إن ثوب البفتة الذى نرتديه قد نحس به نعمة . . وقد نحس به نقمة .. وقد لا نحس به . . إنا نراه نعمة لو خفضنا البصر إلى غيرنا من الحفاة العراة ، ونقمة لو رفعنا البصر إلى لابسى الخز والديباج . . ولا نحس به أبداً لو نظرنا إلى سوانا من لابسى البفتة والدمور .

ولقد كنت دائماً أحس . . أنى كاسية وسط عراة . . وريانة بين ظمأى . . كنت أحس أننى وحدى صاحبة الرغيف . . وغيرى يتضور جوعاً . . أو يتعلل بالفتات .

كانت الظروف المحيطة بى تبعثنى على أن أحسد نفسى فقد كانت إحدى أختى تقضى معظم حياتها غضبى فى منزل أبيها، فقد كان زوجها إنساناً نفوراً عصبياً سخيفاً (نكديا) ، أما الثانية فقد استقر بها المقام فى بيت أبى فعلا . . بعد أن

أبت العودة إلى زوجها ، لفرط إدمانه على الخمر والميسر ، ولأنه لا يعود إلى داره إلا قبيل الفجر .

ولم يكن هذا وحده هو مستوى المقارنة الذى أقيس إليه حياتى الزوجية الهادئة الناعمة القريرة . . بل كان هناك مستوى أقل منه انخفاضاً وأكثر سوءا ، وهو مستوى الجيرة التى أعيش فيها ، أو على وجه أدق قاطنى العمارة التى أسكنها .

كانت الأسرة الأولى من الأربع أسر التى تقطن العمارة : تقطن الشقة الأولى من الطابق الأول ، وكانت تتكون من قاض وامرأته . . وأشك كثيراً فى أنهما كانا متمتعين بأى نوع من السعادة الزوجية والهدوء المنزلى .

وكانت الأسرة الثانية تقطن فى الشقة المواجهة . . وربها مدير مستخدمى إحدى الوزارات . . وهو متهم دائماً من زوجته — إن صدقاً وإن كذباً — بأنه يوشك أن يتزوج امرأة أخرى .

أما الأسرتان الباقيتان ، فإحداهما تقطن أمامنا فى الطابق الثانى والأخرى تقطن فوقنا فى الطابق الثالث .

كانت إحداهما ، وهى التى تقطن أمامنا ، مكونة من محام شاب يمت إلى زوجى بصلة قرابة . . وزوجه لعوب براقة

فاتنة . . تميل بسليقتها إلى الخلاعة والتبهرج .

ولم يكن هناك رجل من أهل العمارة لا يبادلها البسمات والتحيات سوى زوجى . . فقد كان يشمئز من مرآها . . وكان يود لو استطاع أن ينصح قريبه حتى يردعها أو يطلقها، فقد كان يراها وصمة فى جبين العائلة وجرثومة فتاكة .

ولكنى كنت أصده عن رغبته وأرجوه ألا يتدخل فيما لا يعنيه .

كنت أقول له هذا . . عن اعتقاد جازم . . فقد كنت أحسن النية بالمرأة ، حتى بدأت أحس ذات يوم بأنها جادة فى عبثها . . وأن هناك علاقة بينها وبين رب الأسرة التى تقطن أعلانا وهو طبيب ضابط .

وفى ذات يوم أقبل زوجى على البيت وقد تجهم وجهه وبدا كأن فى صدره ثورة تعتمل وغضباً يستعر . . وسألته عما به فأجاب بلا شىء . . ولكنى رأيت أنه يجاهد فى كبت غضبه . . فألححت عليه .

وأخيراً وضح لى الأمر قائلا إنه قد تأكد بنفسه أن زوجة قريبه امرأة سوء . وأنه لا يستطيع الصبر على عبثها ولا يطيق أن يدعها تجعل من الدار ماخوراً وتلوث شرف زوجها الغبى الحمار .

ولم يكن ميعاد حضور زوجها قد حل ، فقد كانت الساعة السابعة مساء ولم يكن يحضر قبل العاشرة . . ووجد زوجى أن خير فرصة ينتهزها لتوجيه نصيحته للمرأة العابثة هى هذه الساعة . . فذهب يطرق باب الشقة .

وكان أقصى ما أخشاه أن يثور زوجى فى غضبه . . فإنه رغم هدوئه وحلمه وسعة صدره . . كان إذا غضب نسى نفسه . . وخرج عن وعيه .

وبدأت أندم على تركه يزج بنفسه فيما لا يمكن أن يعود عليه إلا بالشر . . مالنا ولغيرنا ! !

ثم هناك أمر آخر . . أليس من المحتمل أن يعود زوجها فجأة . . فيندفع زوجى فى غضبه ويقص عليه جلية الأمر .

ومن يدرى ربما ثار زوجها فقتلها وقتله وقتل نفسه .

وأخذت الوساوس تصطخب فى رأسى .

وتملكنى على زوجى قلق شديد . . وخيل إلىّ أن غيبته قد طالت ، ووجدتنى أندفع مكروبة لاهثة لأطمئن عليه .

وطرقت الباب طرقة خفيفة فلم يجب أحد . . ووجدت أن الباب غير مغلق بالمزلاج ، فدفعته دفعة خفيفة فانفتح ، ودخلت إلى الصالة وأنا فى غمرة من القلق والاضطراب .

ووقفت فى منتصف الصالة الخالية . . أدير البصر يمينا ويساراً دون أن أجد أحداً . . وزادت فى نفسى الوساوس . ووجدتنى أندفع بلا إرادة إلى أقرب حجرة إلىّ فافتح بابها وأدلف منه .

ولا أظننى أستطيع قط أن أصف لك مبلغ دهشى وارتياعى وأنا أقف فى الحجرة أحملق فى المنظر الذى رأيت فيها .

لقد رأيت آخر ما يمكن أن يخطر على بالى .

رأيت الإثنين وقد ضمهما فراش واحد .

من يصدق هذا . . ؟

زوجى الأمين الطيب الوفى ، الذى كان يشمئز من المرأة ، والذى كنت أخشى عليه من أن يقتلها من فرط كرهه لها . . ينهار أمامها بمثل هذه السرعة ؟

أهكذا تتطاير المبادىء والإخلاص . . فى غمضة عين . . أمام جسد عار وجيفة نتنة . . ! ؟

أهكذا الرجال ياسيدى كلهم كالكلاب . . مهما حسن نوعهم وكرم أصلهم . . لا يتورعون عن أن يدسوا أنوفهم فى أقرب كوم للقمامة يلوح لهم .

إنى أكتب إليك من بيت أبى ، فإنى لم أستطع أن أبقى

لحظة واحدة مع الرجل الخائن الغادر .

إنى أحس بأن أملى فى الحياة قد ذرته الرياح ، وأشعر أن كرامتى قد خدشت ، بل سحقت .

وإنى مصممة على طلب الطلاق . . مصممة على ألا أعود إليه قط .

ولكن يطوف بذهنى بين آونة وأخرى ذلك السؤال الذى سألتك إياه فى مبدأ الأمر :

أكل الرجال كذلك ؟ من نفس المعدن الخبيث والطينة القذرة . . ؟

أجب بصراحة .

أهناك أمل ـ فيما لو انفصلت عن زوجى ـ أن أصادف بين الرجال من هو أطيب عنصراً ؟ أهناك رجاء فى مستقبل أفضل .. أم أنكم كلكم كذلك .

أجبنى ياسيدى . . أكلكم كذلك ؟

المخلصة

(. . .)

* * *

سيدتى العزيزة . . . .

أجل . . كلنا كذلك .

كلنا تماماً كما وصفت . . نفس المعدن الخبيث والطينة

القذرة . ماذا أقول لك . . وقد رأيت أن زوجك المثالى ، الذى قلت عنه كل ما قلت . . قد تهاوى عند أول تجربة ألقى به فيها ؟

أنا لا أعرف بالضبط ماذا فعلت به المرأة . . ولا ما نوعها . وإن كنت أستطيع أن أخمن ، وأستطيع بناء على التخمين أن أجزم ، بأنى أنا أو غيرى ، ما كنا نستطيع المقاومة . . لو كنا مكان زوجك ، وإن كان ذلك لا يمنع من أن نكون أشد من زوجك حذراً . . فلا نترك الباب مثلا غير مغلق بالمزلاج .

يجب أن تعلمى أن أمثال هذه المرأة التى أوقعت زوجك كما أوقعت غيره . . هى أشبه بالسبيل الذى يشرب منه كل عابر سبيل . . أو بالطوبة الملقاة على قارعة الطريق يقرعها كل سائر بقدمه . . فلا يكاد يتجاوزها حتى ينساها (اللهم إلا إذا كان غاوى طوب) .

عودى إلى زوجك يا سيدتى . إن كل ما يجب عليك عمله هو أن تتركى الدار الموبوءة وتبتعدى بزوجك عن منطقة الخطر .

المخلص

(. . .)

سيدى العزيز . .

لا أمل هناك فى عودة ، ولا رجاء فى صلح . . لقد اتضح لى أن هذا الزوج المثالى . . كان أول الناس صلة بالفاجرة . . وأن غضبه لم يكن غيرة على الفضيلة والشرف ، بل غيرة على المرأة من بقية الرفقاء .

يا للرجال الخادعين الخونة .

المخلصة

(. . .)

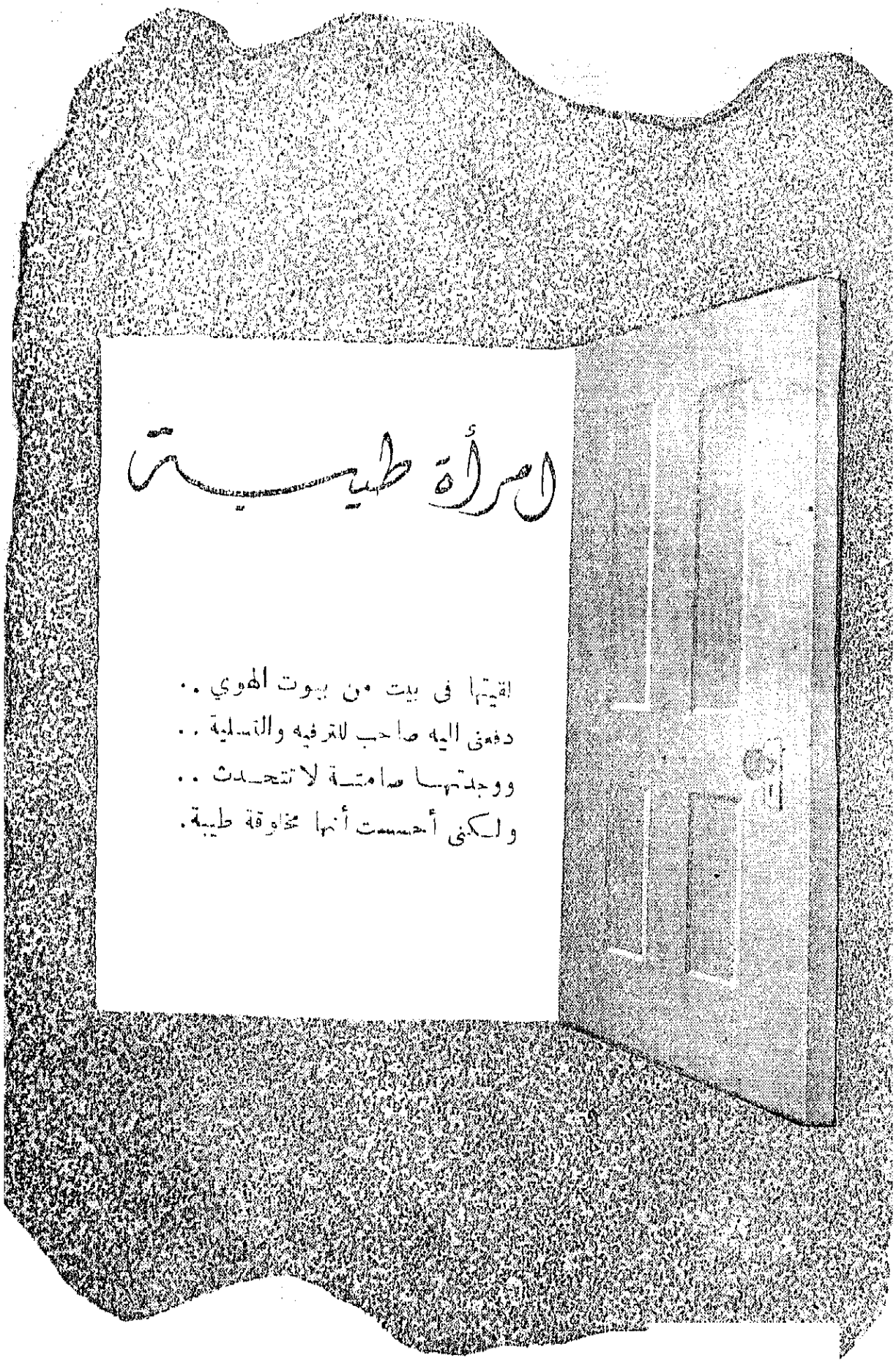

امرأة طيبة

لقيتها فى بيت من بيوت الهوى ..
دفعنى اليه صاحب للترفيه والتسلية ..
ووجدتها صامتة لا تتحدث ..
ولكنى أحسست أنها مخلوقة طيبة.

كنت في إحيرة من أمرهما . . وكنت أسائل نفسي وأسائل الناس . . كيف يستطيعان التفاهم ؟ وأية سخرية من سخريات القدر ألقت بأحدهما في طريق الآخر ، وأرغمتهما على رفقة العمر ، وشركة الحياة ؟ !

وأعجب ما في الأمر . . ذلك الحب العنيف بينهما . . فلقد كنت أفهم أن زواجهما — برغم ما فيه من تناقض يبعث على الدهشة — قد يكون وليد منفعة أو جاء خبطة عشواء من صنع الظروف الخرقاء أو فرضته أسباب خفية قاهرة ، فلم يستطيعا سوى الإذعان والامتثال . . أجل . . كنت أفهم أن زواجهما العجيب . . ليس سوى ، وضع شاذ لغرض من الأغراض ، والحياة مليئة بالأوضاع الشاذة المقلوبة . كل هذا كان يمكن أن يبرر زواجهما ، أما أن يكون بينهما حب ، وحب عميق قوى متين ، فذلك ما لم أجد له في ذهني ما يبرره .

وكيف يقوم حب .. بين أعمى وبكماء . . حب استطاع أن يدفع كلا منهما رغم ما به إلى المغامرة بزواج صاحبه ؟ !

لو أنهما تزوجا وهما صحيحان ، ثم أصيب كل منهما بما أصيب به . . لما كان هناك ما يبعث على الدهشة . . بل لما

وجدت فى حبهما القوى سوى صلة طبيعية زادتها المصائب والنوازل توثقاً وارتباطاً .

ولكنهما تحابا وأقدما على الزواج وبكل منهما مابه ، كيف أحب كل منهما الآخر ؟ كيف استطاعا التفاهم ؟ . . وكيف تبادلا العواطف والمشاعر ؟

لو كان كلاهما أبكم . . لقلنا أنهما تفاهما بالعيون ، ولو تعطلت — برغمهما — لغة الكلام ، لخاطبت « عينيه فى لغة الهوى عيناها » .

ولو كان كلاهما أعمى ، لقلنا جرى بينهما الحديث فعشق كلاهما الآخر بسمعه وأذنه ، « والأذن تعشق قبل العين أحياناً » .

أما أن يجمعا بين العمى والبكم ويتحابا . . فذلك ما حيرنى ، وملأنى عجباً ! .

ولقد بقيت أسائل نفسى كيف يعيشان ؟ وكيف يتفاهمان ؟ حتى جمعتنى بهما أواصر صداقة ، وزادت بيننا الصلة حتى استطعت أن أعرف الكثير عن حياتهما الخاصة . . فعلمت كيف يتفاهمان .

شىء عجيب !! لقد كانا يتفاهمان كأصح صحيحين ، وكأن العاهة التى بكل منهما لا أثر لها .

فهل كان التفاهم صنيع الحب ؟ أم طول العشرة والتعود ؟!

كنت أظن قبل أن أعرفهما أن الأبكم ، دائماً لا يسمع ، أما هى فقد كانت تبدو لى كأنها تسمع . . أو أنها كانت تلتقط الحديث وتفهمه من مجرد حركة الشفاه . . فكان هو يتحدث ، وهى تفهم كل مايقول ، وتلبى كل مايطلب ، بلا لبس ولا خطأ .

وكان هو شخصاً عجيباً . . يبدو لى أن حاسة السمع أو اللمس كانت لديه خارقة للعادة ، ومن يدرى ربما كانت لديه حاسة سادسة . . يفهم منها ماتريد ويقرأ بها خبايا رأسها وصدرها دون أن تفصح عنه .

على أية حال . . سواء أكان هذا أم ذاك ، أو كان شيئاً آخر مما لست أدرى . لقد كان الشىء الذى أستطيع أن أجزم به . . هو أنى ما رأيت التفاهم بينهما يتعثر قط . . بل كانا يتفاهمان كإنسانين سليمين .

ولقد هدأت حيرتى بعض الشىء بطول معرفتى لهما . . ولكن حب الاستطلاع لم يخمد فى نفسى . . بل بقيت أتلهف إلى معرفة قصتهما . . كيف التقيا ؟ وكيف تحابا ؟ إن فى حبهما — بلا أدنى شك — أمراً يستحق أن يعرف !

وسنحت الفرصة ذات ليلة ، وقد خلوت به فى شرفة

الدار . . نسمر بحديث هادىء ، وبدأت أحدثه عن نفسى حديثاً رقيقاً مستفيضاً استطعت به ، وبسكون الليل ونسيمه ورقته . . أن أستدرجه إلى الحديث هو الآخر ، وإذا به يمد ساقيه فى استرخاء ويدفع رأسه إلى الوراء كأنه ينظر إلى السماء ويقول :

— أحببت مرتين .. حباً قديماً وحباً جديداً ، أماالقديم فقد ثوى ، ولم تبق منه سوى ذكريات باهتة . . تبدو كأنها بقايا سحب فى الأفق البعيد .. لقدفقدت صاحبته ، أو لكيلا نظلمها فقدت أنا منها ، وافترقنا على عهد وميثاق وذهبت إلى الميدان بعد أن وعد كل منا الآخر أن يكون لصاحبه ، ولكن الظروف أضاعت العهد ومزقت الميثاق ، فلم نلتق بعد ذلك أبداً .

لم أحاول أن ألقاها . . فقد كنت أعلم أنى بالنسبة لها لن أكون سوى إنسان مفقود ميت . . هالك ، وكنت أفضل أن أكون كذلك . . من أن أبدو لها بهذا الشكل البشع . . ضريراً مشوهاً !

كنت أرى أن أبقى فى ذاكرتها ذكرى جميلة بدلا من أن أكون فى حاضرها واقعاً مراً ثقيلا .. كنت غير واثق من نفسى ، وكنت أكره أن أكون فرضاً بغيضاً عليها .

ثم أنه لا حق لى عليها — وهى ناضرة كالزهرة ، وهبتنى شذاها وأنا إنسان سليم — فى أن أتعلق بها فأشدها لتقضى بقية عمرها مع ضرير خابى العينين مظلم الحياة .

كان حبى لها قبل أن أصاب يشدنى إليها .. فلما أصبت أحسست أن حبى يدفعنى عنها .

وهكذا عدت من ميدان القتال وكأنى لم أعد . . لقد سبق أن أعلنوا أنى مفقود ، ولا أظن أحداً قد اهتم لفقدى اللهم إلا هى ، فقد نشأت يتيم الأبوين ، وقضيت حياتى وحيداً ، منطوياً على نفسى . . لا أحب ولا أحب ، حتى لقيتها ، فأحسست نحوها بما يحسه ضال فى بيداء مقفرة أقبل على واحة منحته الظل والثمر والماء ، فوقته من هجير ، وأطعمته من جوع ، وسقته من ظمأ .

عدت من القتال ضريراً ، أو على الأصح ميتاً مفقوداً لأنطوى على نفسى مرة أخرى وأعود لأضرب فى بيداء الحياة وأفقد الظل والماء والثمر ، وأفقد معهما البصر والأمل .

ومرّت بى الأيام لتزيدنى يأساً على يأس ، ومللت الحياة وهممت — لولا بقية إيمان — بالتخلص منها . . حتى ان ذات يوم ، أحسست أنى بعثت من العدم .

أجل مرّة أخرى . . أحسست أنى وهبت الملجأ بعد طول ضلال ، ولقيت المقر بعد طول سعى وكدّ .

لقد أحببت ثانية ؟ ! !

لست أدرى لِمَ أحببتها ، ألتوافق بين نفسينا . . أم لأنها كانت ذات عاهة وكنت ذا عاهة ، فألف المصاب بين قلبينا ؟ أم لأنها كانت أول من منحنى عطفاً وحدباً ؟

الواقع أننى كنت على استعداد لأن أحب أية ء تمنحنى قلبها . . أيستطيع طاوى الصحراء الجرداء . . أن يرفض قدراً من الماء مهما حقر ، وقدراً من الظل مهما ضؤل ؟

لقيتها فى ظروف عجيبة . . لو لقيت بها غيرها لما فكرت قط فى أن أتزوجها . . أماهى ، فما كنت لأتردد فى زواجها حتى ولو لقيتها فى أسوأ مما لقيتها فيه .

لقيتها فى بيت من بيوت الهوى . . دفعنى إليه صاحب للترفيه والتسلية ، ووجدتها صامتة لا تتحدث ، ولكنى أحسست أنها مخلوقة رقيقة جميلة طيبة ، وسألت عنها صاحبة البيت فأنبأتنى أنها فتاة بكماء .

ونشأ بيننا ود سريع ، وأحسست منها عطفاً كثيراً ،

ووجدت المشاعر تتدفق من قلبي نحوها ، وفى نهاية السهرة أوصلتنى إلى الدار .

وفى اليوم التالى أقبلت تزورنى ، وتكررت الزيارة يوماً بعد يوم ، ولم تمض بضعة أيام حتى انتهى الأمر بيننا بالزواج .

لقد تمت المسألة فى غاية السرعة . . فلم يمض بين أول لقاء وبين الزواج أكثر من أسبوع .

قد يبدو الأمر تهوراً منى واندفاعاً .. أن أتزوج امرأة من بنات الهوى لاأعرف عنها كثيراً ولا قليلا ، ولكنى أؤكد لك أننى لم أندم قط على فعلتى هذه ، فلقد أحسست منذ لقيتها أن شيئاً خفياً يشدنى إليها ، واستطعت أن أجزم لنفسى أنها — على كل مابها — خير من ألف امرأة شريفة .

لست أدرى مارأيك أنت . إنى أحس أنها عوضتنى عن حياتى الماضية . ويبدو أننى لو تزوجت صاحبتى الأولى وأنا سليم البصر ، لما كنت أسعد حالا مما أنا عليه الآن ، ففى كثير من الأحيان يبدو لى أننى لم أفقد شيئاً ، وأنى ألمس صاحبتى الأولى فيها . . وأحس بها بين ذراعى ، وأنى أبصرها كما كنت أبصرها فيما مضى . . حتى ليخيل إلىّ أنى أحب الاثنتين فى واحدة ، وأن فقدى البصر جعلنى أتوهم

صاحبتى الأولى فيها — أترى النساء يتشابهن جميعاً . . إذا ما تحسسناهن بأيدينا ؟

☆ ☆ ☆

وصمت الرجل ، ولم أدر بأى شىء أجيبه ، ولم أشك من حديثه فى أن كل ما به حنين مبعثه حبه الأول ، الذى خشى عليه أن يتحطم إذا ما التقى بصاحبته ، وأنه فضل طول الحرمان على مرارة الهزيمة ، وحرص على أن يحتفظ فى ذهنه بأوهامه الجميلة . . ليعيش عليها .

فلما التقى بأول امرأة . . أبدت له عطفاً ، بعد أن أضناه الحرمان ، وهبها ما اختزنه من الحنين ، وأقبل عليها ، فأحب فيها صاحبته ، ولم أشك فى أن الوهم قد رسمها له صورة طبق الأصل منها .

ماذا يضيره .. ما دام ضريراً ، لا يبصر شكلها الحقيقى ولا يميز الفارق بينها وبين صاحبته الأولى ؟ .

☆ ☆ ☆

ونهضت من مقعدى فشددت على يده مودعاً وهممت بالخروج عندما وجدت الزوجة مقبلة من الحجرة المجاورة ، وبدا لى من نظرتها أن فى رأسها أشياء كثيرة ، وسرت

وإياها مجتازين الحجرة إلى الصالة إلى الردهة لتوصلنى إلى الباب .

وفى الردهة وجدتها تتوقف ثم ترفع بصرها إلىّ وتهمس قائلة بغتة :

— هل سمعت منه القصة ؟

وتملكنى الذهول فقد كنت على استعداد لأى شىء إلا أن أسمع البكماء تتحدث .

وهمست متسائلا فى دهش شديد :

— أتتكلمين ؟

وهزت رأسها مشيرة « أجل » ثم أردفت قائلة :

— يبدو لى أن من الإنصاف أن تسمع القصة من الناحية الأخرى . . إنى وصاحبته الأولى مخلوقة واحدة إنى هى . . التقيت به أول مرة ، وأنا على وشك الانزلاق إلى الهاوية فأحببته كما لم أحب من قبل وأحسست أنه قد أنقذنى من التردى ، واتفقنا — كما قال لك — على أن يكون كل منا لصاحبه .

ثم سافر إلى الميدان ، وأخذت أنتظر ، ولما علمت من صحبه أنه فقد ، تملكنى اليأس وأحسست بالانهيار ، ووجدتنى أندفع مرة أخرى إلى الهاوية . . دون أن أجد

ماينقذنى ، ومرت بى الأيام وأنا أتجر فى الهوى . . حتى كان ذات يوم التقيت به . . فكأنى رأيت ميتاً بعث ، وأحسست بالحنين إليه ، ولكنى كرهت أن أحطم فى ذهنه صورتى الحلوة الشريفة ، وخشيت — كما خشى هو من قبل — أن أبدو له بهذه الصورة البشعة . . إمرأة مدنسة ، ولم أتكلم ، حتى لا يعرفنى ، ورجوت صاحبة البيت أن تنبئه أنى بكماء ، وحاولت تجنبه والابتعاد عنه ، ولكنه أقبل علىّ فى لهفة وشوق كأنما قد أحس بى ، ولم أستطع إلا أن أبادله اللهفة على أننى مخلوقة أخرى جديدة غير صاحبته الأولى . ومنذ ذلك اليوم . . لم أنبس ببنت شفة .

وعرض علىّ الزواج كما أنا . . بكماء من بنات الهوى . . ولم أتردد فى القبول . . وعشت معه بشخصيتى الجديدة . فكسبت الحاضر ولم أهدم الماضى .

إنى أمامه واقع سعيد هنىء ، وفى ذهنه ذكرى جميلة ممتعة . . .

امرأة آثمة

ومرة أخري تدخل القدر
ليقذف الينا بجديد . . ولكن
قذيفته هذه المرة كانت برداً وسلاماً
وكان فيها الشفاء لنفس مضناة
معذبة ، والرجاء لقلب يائس
موجع ، والماء لروح صادية مهجرة .

يا قيس ليلى بليلى قل لذا الوله
هل آخر الحب مر مثل أوله ؟
أتيت ربع الهوى عن غير معرفة
والله يعلم ما ألقى بمنزله
ما كان ذلك طوعاً إنما قدمى
زلت بقلبي فقادته لمقتله

أقسم بليلى . . ليلاى . . وليلاكم . . وليلى هذه القصة . إن آخر الحب أشد من أوله مرارة وألذع طعماً .

وما أحق الشاعر الشاكى بالرثاء وقد ذاق المر من أوله وأتى ربع الهوى ، وخاض بحر الصبابة ، خوض جاهل مكره مساق عن غير معرفة وبلا إرادة ولا رغبة ، ولكن قدمه هوت به وزلت بقلبه ، فأودت به إلى حتفه وقادته لمقتله .

ما كان ذلك طوعاً ! .

ومتى كان الحب طوعاً ؟ ومتى كان عن معرفة وتقدير ؟

إن أمامى رسالة من بغداد . . رسالة ليلى المريضة المعذبة . . قرأتها مثنى وثلاث ورباع ، وفى كل مرة أصل لآخرها وأتوقف أمام لوعة صاحبتها وحيرتها وسؤالها إياى أن أصف لها دواء وأجد لها حلا .

إن الدواء مر . . فعند ما تزج بنا الأقدار فى مثل هذه التجارب يتعذر علينا الخلاص إلا بطريقين أحلاهما مر . . وأسهلهما شائك وعر . . الأول على حساب تحطيم قلوبنا وتمزيق مشاعرنا . . والثانى على حساب تحطيم التقاليد وتمزيق العرف والأوضاع . . الأول نكبح فيه جماح أنفسنا ونعلمها الصبر على الشقاء والجلد على الحرمان . . والثانى ننطلق منه على هوانا . . تلهب ظهورنا سياط الألسنة ، وتدمى أقدامنا أشواك اللوم والتأنيب . . وكلا الطريقين شاق عسير . . والنهاية . . الله بها أعلم .

هذه الرسالة تحتوى على تجربة شاقة عسيرة ، لست أشك فى أن الأقدار لا تبخل به على البشر . . بل هى تبسط بها يدها كل البسط فى كل زمان ومكان .

ولست أريد أن ألقى لوماً على صاحبة الرسالة . . أو أحملها ذنباً ، فأنا أكره أن أعطى طالبة العلاج والمشورة بدل الدواء لوماً ، وأكره أن أحملها نتيجة ما انساقت إليه . فهذه المآزق والأزمات تدفعنا الأقدار إليها دفعاً . . فنجد خيوطها قد أحاطت بنا وأوثقتنا فلا نملك حراكا ولا فكاكا .

ومع ذلك ، ومع رغبتى الشديدة فى تجنب اللوم . . فإنى لا أملك أن أمنع الحيرة والدهش اللذين يتملكانى

كلما توقفت أمام بعض الحوادث والمواقف فى هذه الرسالة .

ولا أملك أن أمنع نفسى من التساؤل عن نظام الحياة فى بيوت العراق ، وعن تقاليد العائلات العراقية المحافظة .

هل من الطبيعى أن يسمح لغريب بالحياة مع أهل الدار ؟ وهل من الطبيعى أن يصبح غريب ذو حق فى عائلة من زوج وزوجة وأم وأب ؟ وأن تتضخم حقوقه إلى درجة أن أى أكلة تعجبه تطبخ له وأنه إذا تأخر عن الطعام لا يجسر أحد أن يتناول الطعام قبل أن يتصدر المائدة ؟

هل هذا شىء طبيعى فى عائلة عراقية محافظة ! ؟

أنا لا ألوم ولا أسخر .. بل إنى أتساءل مجرد تساؤل ، إن الرسالة قد تضمنت هذا الكلام بمنتهى البساطة كأنه لا عجب فيه . . ومع ذلك فقد عجبت له . . فإنى أعرف العراقيين كالمصريين . . وأن تقاليد العائلة العراقية المحافظة هى نفسها تقاليد العائلة المصرية المحافظة .

وهل من الطبيعى أيضاً أن . . ؟

ولكن مالى ولكل هذا التساؤل ؟ أليس من الأفضل أن أعرض الرسالة كما هى . . وليحكم عليها القراء بما يشاءون . . ؟

أظن هذا خير وأفضل .

إليكم الرسالة كما هى . . بلا تنميق ولا تزويق .

« أخى . .

. . سأحدث أخى عن سر أدمى فؤادى وجعلنى أذبل وأنا بعد فى ربيع العمر وناضر الحياة .

أكتب إليك كتابة شابة تعسة بائسة تقطعت بها خيوط الأمل وسدت فى وجهها سبل الرجاء . . وبلغ بها اليأس مبلغاً جعلها تتوهم نجاتها فى خيط واه رقيق ! وتتلمس وسط الظلماء بارقة نائية تلمع كاللآلىء .

أجل يا أخى . . لقد بلغ منى اليأس مبلغاً دفعنى إلى أن ألجأ إليك وأنا فى بغداد وأنت فى القاهرة ، فأكتب إليك شارحة قضيتى ، عارضة مأساتى ، سائلة إياك أن تجد لى منها مخرجاً وتسعفنى بدواء بعد أن عز المخرج واستعصى الدواء .

أنا أسألك الدواء وأنت فى القاهرة وأنا فى بغداد .

أسألك راجية آملة .

لا تتهمنى بالجنون ، فأنا مازلت عاقلة . . ولولا هذا الأمل والرجاء الذى حفظ لى بقية من عقل ، لأودى بى اليأس إلى هوة من الجنون .

إننى آمل فيك ، على البعد ، لأنى لابد أن آمل فى شىء ،

وما دام الأمل قد ضاع فى كل ما حولى ، فلِمَ لا آمل فى شىء بعيد ؟ . على الأقل حتى لا تستعصى علىّ الحياة .

أنا فتاة (هكذا كتبت صاحبة الرسالة . . وأعتقد أن الصحيح .. سيدة) ولدت فى وسط محافظ على التقاليد ، ومن عائلة متوسطة تتكون من أم وأب وأخ .

ولست أريد أن أضيع وقتك بتفاصيل تافهة عن العائلة ، ولكنى ألخص العلاقة بيننا بأن كل فرد فى العائلة يحب الآخر ويحترمه .

وبدأت اندماجى فى الحياة العراقية بالالتحاق بإحدى المدارس الابتدائية . . وكنت أشعر منذ حداثتى برغبة فى الدراسة وميل إلى تحصيل العلم ، ومكنتنى هذه الرغبة وهذا الميل من التفوق على لداتى من الطالبات ، وكانت أقصى أمنية لى أن أتم دراستى حتى النهاية ، ولكن القضاء الجائر لم يشأ أن أنال أمنيتى فحالت ظروف قاسية بين الدراسة وبينى وانتزعتنى من الطريق فى أول مراحله .

ولم يزعزع ذلك الجور من القضاء والشدة من الظروف ثقتى بالحياة ، وداومت على السير فيها راضية قانعة ، حتى قذف القدر إلينا بما زلزل زلزالها وأخرج أثقالها ، وغدت علينا الرياح بغمامة معتمة مظلمة خيمت عليها . .

أو على الأصح . . على حياتى أنا بالذات .

لم تكن الغمامة والزلزال سوى رجل جمعته بأخى دواعى العمل ، ووثقت الدواعى الصلة بينه وبين العائلة . . وزادت الأيام هذه الصلة وثوقاً ، فقد كان بحكم العمل المشترك بينه وبين أخى دائم التردد علينا يكاد يقضى معظم يومه فى بيتنا .

وقد بدأ هبوبه علينا وأنا لم أزل بعد طفلة غريرة . . لاهم لها سوى استذكار دروسها وعمل واجباتها الدراسية والانهماك فى تدبير شئون الدار ، وأخذ مركزه يتوطد بيننا ومقامه يستقر ، وزاد تعلق الأسرة به حتى انتهى الأمر به إلى أن يقطن معنا .

ولا أكذبك القول إذا قلت لك أن الرجل كان يتمتع بكل احترام وتبجيل ، وكان الكل ينظرون إليه نظرة تقدير . . عداى .

أجل . . أنا وحدى الصغيرة الضئيلة التافهة . . التى كنت أكرهه وأحتقره . . فما كان يقع من نفسى إلا موقع أفاق أمى فرضته علينا الأقدار فرضاً ، وعبثاً حاولت أن أعود نفسى حتى على مجرد قبوله ، فقد كانت تعافه وتزدريه وهى الطموحة الوثابة ، وهو رجل الشارع الفظ الغليظ المحروم من كل ما وهبه الله لإنسان محترم . . لا ثقافة

ولا خلق ولا ذوق . . ولا شيء أبداً .

ومع ذلك فلم أك أستطيع إلا الرضاء . . فما كنت أملك في الدار سلطة طرده وإقصائه ، ووجدتني أصبر مضطرة على قربه والعيش معه . . حتى وقعت الطامة الكبرى ، وطلب يدي .

طلب يدي لكي أكون زوجته ولكي أنام وإياه تحت سقف واحد وفي فراش واحد .

هذا الحيوان الجاف ، من دون خلق الله أجمعين ، يطلبني أنا بالذات من دون نساء العالم لكي أشاطره حياته ولكي أشد معه بوثاق يربطنا معاً إلى الأبد ! .

ولم يجد من الأهل رفضاً ولا صداً ، فقد كانوا كلهم في حاجة إليه بعد أن قيدهم بأغلال هداياه وجمائله ، وبعد أن أغمضوا أعينهم عن خبث نفسه وسوء طويته فلم يكتشفوه على حقيقته رغم انقضاء هذه المدة الطويلة على سكناه معهم ،

وفاتحوني في الأمر فهببت ثائرة غضبي مدافعة عن كياني وعن مستقبلي وعن حياتي الطويلة الباقية . . وتشبثت بحقي في الحياة وفي اختيار الزوج تشبث المستميت . . وقلت إني مازلت صغيرة وأني أرغب في الاستمرار في الدراسة . . وحاولت التذرع بجميع وسائل الرفض ، ولكن رفضي

لم يجد معهم نفعاً . . وساقونى إلى مصيرى سوق النعاج إلى إلى قصابها والمذنب إلى جلاده .

وفى ذات يوم أسود أغبر مثقل بالكروب والخطوب ، نفذ فى حكم الزواج .

انتهى الأمر وحانت الآخرة ، وسقت إلى مصيرى المحتوم .. إلى بيت الزوجية الجديد ، ولم يكن أمامى مفر منه فتوسلت إليهم ـ ماداموا قد قضوا علىّ هذا القضاء ـ أن يترفقوا بى ويستعملوا الرأفة وألا يتركونى وحدى . . بل يؤنسوا وحشتى ويقطنوا معى وألا يفارقونى ويخلفونى وحدى معه .

ومرت بى الأيام وأنا أزداد تعاسة وشقاء ، وجسدى يزداد نحولا وذبولا حتى وهن منى العظم وبت شبحاً لا يكاد يعرفنى أقرب الناس إلىّ .. وهو .. هو .. يرتع فى بحبوحة من الجهل والغباء والفظاظة والغلظة . . لا تكاد تسمع من شفتيه سوى سيل دائم من الألفاظ النابية الجارحة .

ورزقت من هذا الوحش بطفلة آية فى الجمال ، ولكنها شبت على غرار أبيها .. فظاظة خلق ، وغلظة طبع ، حتى بت أكرهها أشد الكره . . ونمت وترعرعت وهى أبعد ماتكون عن عطفى وحنانى .

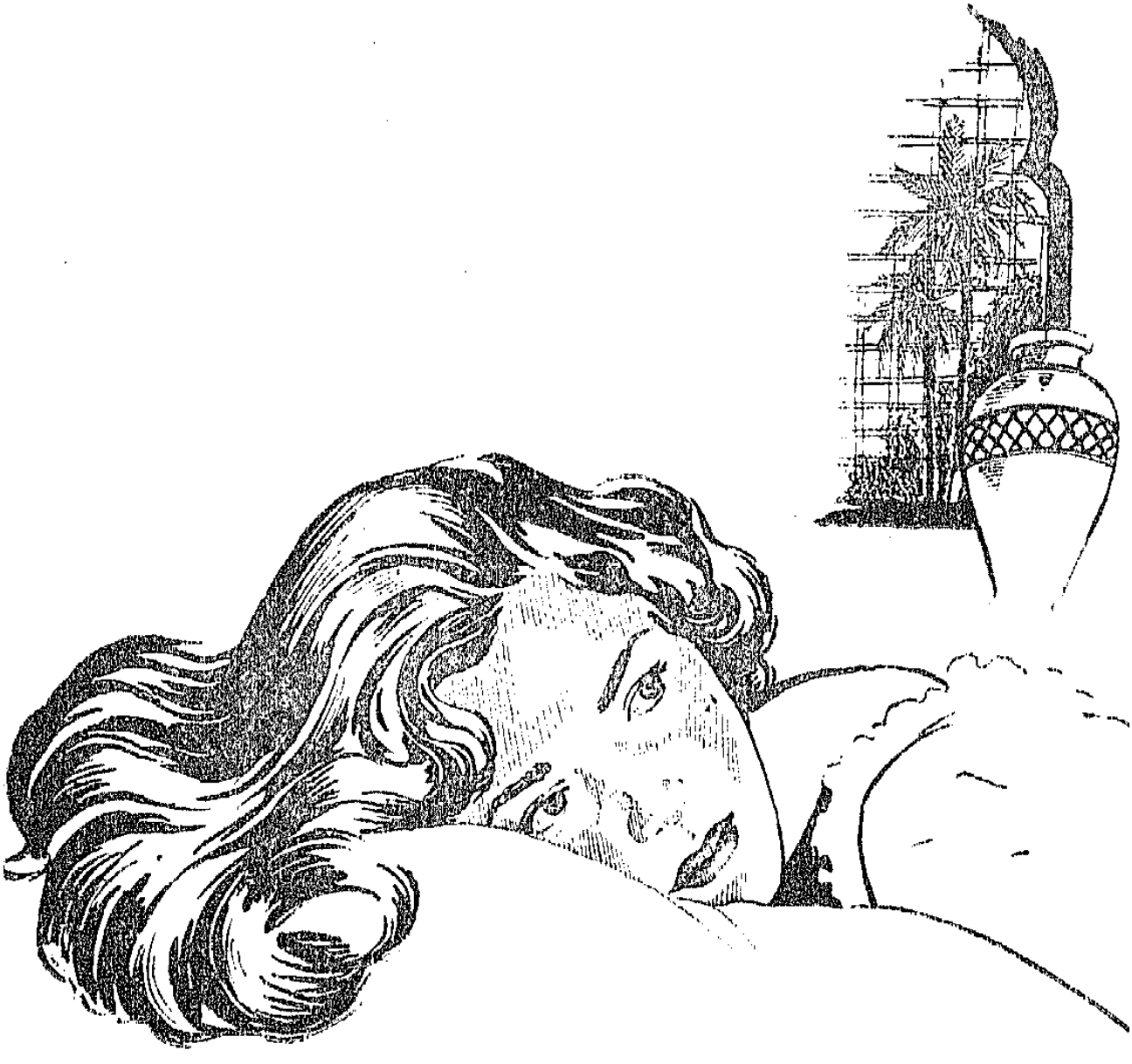

لقد كنت أشعر دائماً أنها ابنته وحده . . وأنه ليس لى فيها ناقة ولا جمل ، فبغضتها ، وهى ابنتى ، لمجرد إحساسى بأنه يشاركنى فيها تلك البنوة .

أجل . . لقد تغلب كرهى لابنته على حبى لابنتى .

وهكذا سارت حياتى معه على وتيرة واحدة ، فما اعتبرته يوماً زوجاً لى . . وما بادلته حباً ولا ميلا ، ولا حتى إحساساً بوجود .

وفى صيف ١٩٤٧ أفلحت ، بعد إلحاح شديد ، فى إقناعه بالسفر إلى مصر لتمضية الصيف فى الاسكندرية . . ولأتداوى من علة لازمتنى هى « مرض الأعصاب » .. فقد كانت أعصابى متوترة مرهقة وكنت أثور لأتفه سبب .

ومرة أخرى تدخل القدر ليقذف إلينا بجديد . . ولكن قذيفته هذه المرة كانت برداً وسلاماً ، وكان فيها الشفاء لنفس مضناة معذبة ، والرجاء لقلب بائس موجع ، والماء لروح صادية . . مهجرة .

لقيته فعرفت فيه — من أول نظرة — بلا أى مبالغة ولا ادعاء ، حبيب الروح وأنس الحياة ، ولم أجرؤ أن أعترف حتى لنفسى . . بهذا الأمر ، بل زعمت لنفسى أننى ارتحت إليه مجرد ارتياح ، فلقد كان مخلوقاً مثقفاً رزيناً

لطيفاً ، هادىء الطبع ، باسم الثغر ، حلو الحديث .

كان شاباً وسيما ذا مركز محترم وأصل طيب ، وثقافة عالية ، وقد تعددت زيارته لنا بعد التعارف وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين أفراد العائلة جميعاً . . حتى أضحى على مر الأيام كواحد منها . . وأصبح الصديق الحميم للزوج والأخ والوالد والوالدة .

وبدأت أحس بالتطور الجديد فى نفسى الثائرة ومشاعرى القلقة وأعصابى المتعبة ، فهدأت الثورة ، وضاع القلق ، وتبدل التعب راحة .

أى والله ياأخى ، ما عدت أحس بحزن ولا قلق ، ولا إرهاق بل أصبحت أحب الحياة وما فى الحياة ، ولم أعد أضيق بكل شىء ذرعاً ، وأحس من كل جلسة مللا . . بل أخذت أشعر بأن هناك ما ملأ الفراغ وآنس الوحشة ، وكنت أجلس وإياه لنقرأ فى كتب الشعر والأدب التى جلبها إلىّ ونتناقش فيها ونتبادل الرأى ، وكنت أحس من ذلك بلذة أى لذة ، ومتعة أى متعة .

لقد بدأت أتذوّق الحياة ، وأعرف ما معنى أن يعيش الإنسان مع صاحب مثقف لطيف رقيق .

وفجأة انقطع . . منعه الزواج عن زيارتنا . وتركنى أشبه

بمجنونة حائرة . . وظمأى مسغبة .

وأقول الحق أنى لم أستطع المقاومة ولا النفاق ولا المداراة ، فارتميت طريحة الفراش ، وكلفت والدى بالتنقيب عنه ، وخرج أبى ولم يعد إلى الدار إلا به .

واعتذر عن غيابه وأنبأنى أنه لم يعرف بنبأ مرضى إلا من أبى وأنه حضر فى التو عندما علم .

واستمر يعودنى حتى كتب لى الشفاء وعادت إلىّ بعودته حياتى ، وأشرق الكون بعد طول ظلمة وعبوس .

ولم أعد منذ ذاك الوقت أطيق البعد عنه لحظة واحدة ، وماعدت أكتم حبى بين جوانحى بل أطلقته متحرراً صريحاً من الخنايا . . وماعدت أخشى شيئاً . . فإذا تأخر موعد زيارته استحثثت مجيئه بالتليفون ، وبت أغار عليه من لمس الهواء ، وأعاتبه إذا قصر يوماً فى الزيارة .

ولست أريدك أن تفهم من قولى أطلقت حبى متحرراً صريحاً من الخنايا أنى قلت له إنى أحبه .

لا . . لا . . إنى ما قلتها قط ، وما قالها .

ما قلتها وما قالها . . ولكن كل فعلنا كان يوحى بها . . وينم عليها .

مرت على علاقتنا هذه ثلاث سنوات ، والحب بيننا

متأجج والهوى مستعر.. لاتنطفىء له نار ولا يخبو له أوار، حتى بات لكل منا حقوق على صاحبه أقوى من حقوق الأزواج والآباء والأبناء، وأصبح هو كل شيء في العائلة، فأى أكلة تعجبه تطهى له، وإن تأخر يوم عن الطعام لم يجسر إنسان على قربه حتى يتصدر المائدة.. فأشعر بالسعادة تفعم جوانحى وأنا بجانبه يروى لى النكات الحلوة والأحاديث الطريفة المسلية.

وفى ذات يوم ألقى لى بأول رسالة يكتبها إلىّ ويبثنى فيها حبه ولواعجه.. ألقاها إلىّ بطريقة مترددة خائفة وجلة مستترة.. فقد دسها لى فى كتاب دون أن يعنونها باسمى كأنما هى مرسلة إلى مجهول، وكانت رسالة حارة ملتهبة تذوب شوقاً وتزفر جوى.. ولا أكتمك القول أنى ما سعدت فى حياتى سعادتى فى لحظة قراءتها، أو على الأصح التهامها.

وطالت غيبته فترة بعد أن دس لى رسالته الممتعة، وكنت أذوب شوقاً إليه فحادثته بالتليفون وسألته متخابثة عما إذا كانت الرسالة الموجودة فى الكتاب تخصه، وعمن يقصد بها.

ورد علىّ بأنها شىء تافه كتبه فى فراغه ورجانى ألا أعيرها أى اهتمام.

ولم تضايقني مغالطته ، فقد كنت واثقة من أنه يعنيني بها ولم أملك سوى أن أقول له ضاحكة :

ـ الله يسامحك .

ومرت الأيام وكل منا يخرج هواه ويكتمه ، ويبوح به ويحبسه .. يبوح به فعلا ويكتمه قولا . . لساننا في صمت وأعيننا وقلوبنا وأرواحنا في صخب وضجيج .

أقوالنا هادئة . . وأفعالنا ثائرة هادرة . كان يكتب لي الشعر الحار على قصاصات من ورق يرفقها بكتبه ، وكان يطلب من الإذاعة أغاني المحبة . فيهيج مني كامن الشوق وزائد الحب .

وطال بنا الهوى الشريف الطاهر المكبوت حتى أخذ يعصف بحياتنا ، فبدأت تصيبه في الصيف الماضي نوبات عصبية ، وأخذ جسده يذبل ، وعوده يجف ، حتى غاب عنا ذات يوم فجأة . . وكنت في الشهر الأخير وعلى وشك الدخول في المستشفى للوضع .

ولم أتصور قط بعده ، فتوسلت إليه أن يحضر فلبي الرجاء ، وأمضيت مدة الولادة وهو ساهر على راحتي لم يفارقني لحظة حتى انتهيت من الوضع وغادرت المستشفى سليمة معافية .

ولم يكد يستقر بنا المقام بعد الوضع حتى وجدته يزورنا فجأة ويعلن أنه قرر نهائياً عدم السكنى فى بغداد ، وأنه سينتقل محل إقامته بعيداً عنا لأسباب صحية . وأن الأطباء أشاروا عليه بتبديل الجو نظراً للتحول الذى أصابه .

وبعد سفره بساعات كتب إلىّ رسالة يصارحنى فيها لأول مرة بحبه الجارف الفياض ، ويصارحنى بأن سبب سفره الحقيقى هو حبه لى ورغبته فى البعد حتى لا يكون سبباً فى مأساة عائلية ، وسألنى أن أكتب له باستمرار .

وهكذا رحل بعد ما أودعنى قلبه الذى يقطر حباً وألماً ولوعة ، وأحسست بالمرارة والحزن ، مرارة الفرقة وحزن القطيعة ، ولكن لم يكن أمامى سوى الصبر والتعلل بالكتابة .

ومرت الأيام وأنا أكتب له وأحدثه بالتليفون على بعد الشقة .

وطال البعد وأنا أصبر عليه وأتجلد ، حتى ذوى منى ناضر الحياة ، ويبس زاهر العود .

ورقدت على الفراش أنا والموت سواء . . لا أتمنى شيئاً سوى لقاء بعد طول فرقة . . ووصل بعد طول نأى وبعد .

وكأنما اراد القدر ان يمعن فى التنكيل والتعذيب ، ويبعد عنى كل أمل فى لقاء أو رجاء فى وصل .

فإذا بى . . أنا التى أنتظر منه عودته من غيابه الطويل ، أسمع أن الأهل قد قرروا السفر إلى خارج العراق .

ولم أطق على قرارهم صبراً ، فأرسلت إليه أستدعيه ، وأعلن أن صبرى قد نفد .

وحضر إلىّ فى النهاية .. وصارح كل منا صاحبه بحقيقة مافى نفسه وسألته أن يضع للمسألة حداً .

وأنبأنى بأنه على استعداد لأن يفعل من أجلى كل شىء وأن يفتديني بروحه . . ولكنه سألنى أن أتروى وأدرس الأمور بعين الحكمة والعقل .

أى عقل ياأخى وأى حكمة ! وهل ترك لى الهوى حكمة وأبقى لى عقلا ! ؟

أنا مجنونة . . تائهة . . حيرى .

أما من معين ؟ أما من منجد ؟

أغثنى يا أخى بنصح منك ! .

فقط لا تنس شيئاً واحداً وهو أنى أحبه . . أحبه . . أحبه . . وأن الحياة بغيره . . مهما كان فيها . . أهون منها الموت .

المخلصة : ليلى

ماذا أقول لها بعد كل هذا ؟ .

وماذا يستطيع أن يقول لها أى قارىء منكم ؟ .

لقد قلت إنه عندما تزج بنا الأقدار فى مثل هذه

الأزمات يتعذّر علينا الخلاص إلا بأحد طريقين : الأول على حساب تمزيق مشاعرنا واحتمال الحرمان . والثانى على حساب تمزيق التقاليد وتحطيم الأصول .

ولكن يبدو لى أن الطريق الأول فى هذه الحالة متعذر وأنه ليس هناك بد من الخلاص بالطريق الثانى وهو تمزيق التقاليد وتحطيم الأصول . . وفراق الزوج والأبناء وتكملة الحياة مع الحبيب .

ولكن هل هناك فى هذه الحالة بالذات تمزيق أصول وتحطيم تقاليد ؟ لا أظن . . ! فإنى لا أستطيع أن ألمح طول الحادثة أثراً لتقاليد أو أصول حتى الإبنة ولدتها الأم مكروهة مبغوضة .

لقد قلت رأيي وأنا بعيد عن مكان الواقعة ، جاهل بأصول بيئتها وتقاليدها .

هل يستطيع أحد من أهل البلدة أن يفتينا ؟ .

يا أهل العراق . . أفتونا أفادكم الله .

* * *

وأخيراً وصلت الفتوى . . وحلت العقدة . . فتوى من السماء ، وحل من عند الله . . لقد أودى بها الداء . . وأنقذتها العلة ، وشيعها القدر بضحكة ساخرة تكاد تقول : هاكم امرأة آثمة ! !

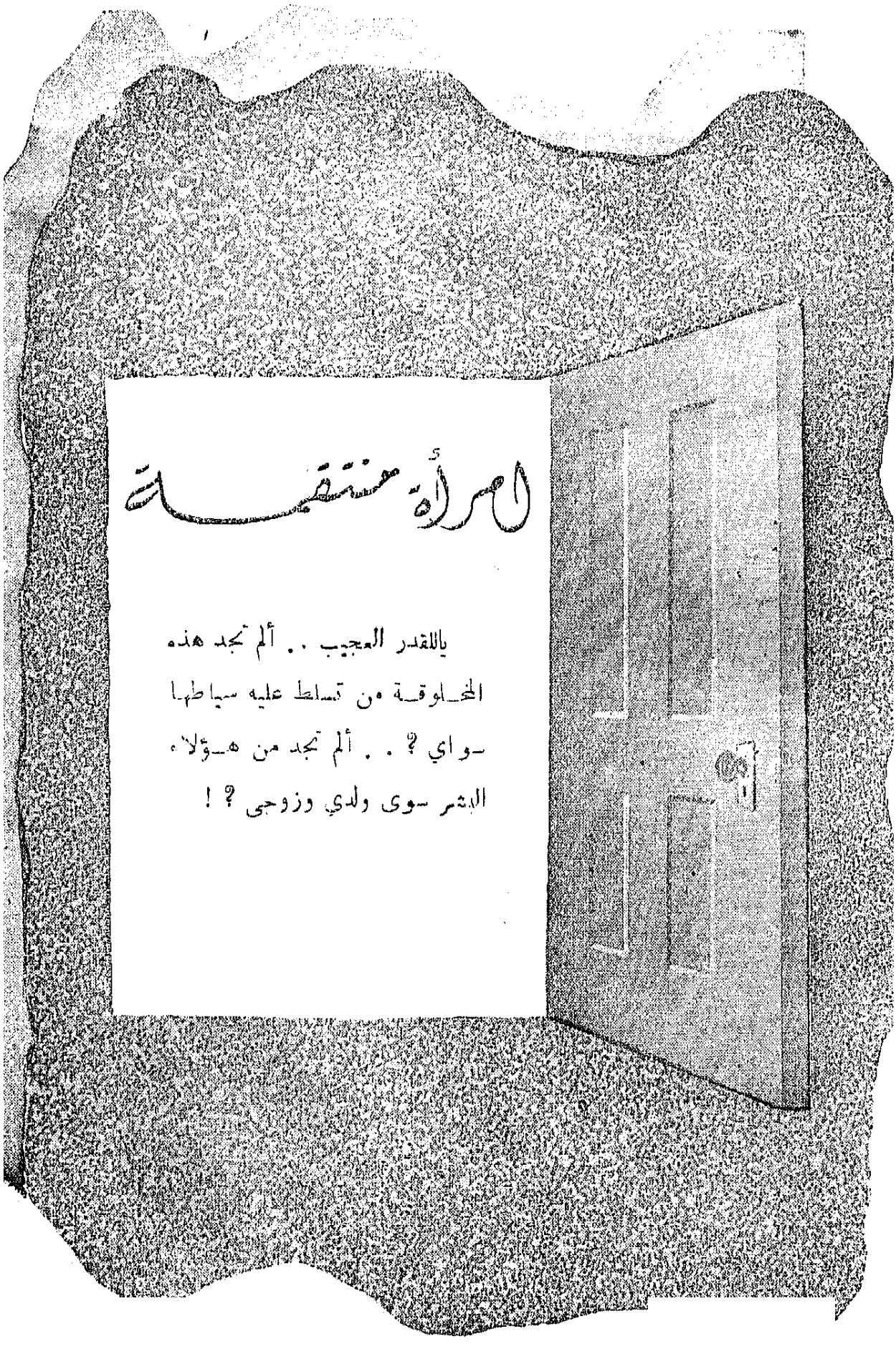

امرأة مستقيمة

يالقدر العجيب .. ألم تجد هذه
المخلوقة من تسلط عليه سياطها
سواي ؟ . . ألم تجد من هؤلاء
البشر سوى ولدي وزوجي ؟ !

صاحبة القصة قالت :

همستني كنت فى حالة انهيار تام عندما ذهبت إليها . . كنت أماً ثكلى . . لم يمض على وفاة ابنها سوى بضعة أيام .

كنت أشبه بحطام . . لم يعد به من الحياة رمق . . فلقد كانت الصدمة شديدة الوقع علىّ . . أشد مما يمكن أن يخطر على بال إنسان .

كانت فجيعتى فى ولدى فجيعة مضاعفة . . وكانت ضربة القدر التى وجهها إلىّ بموته ضربة مزدوجة . . إحداها أفقدتنى إياه . . والأخرى أفقدتنى كل ما يمكن أن أتعزى به أو أتعلق فيه . . أفقدتنى كرامتى . . وثقتى فى الحياة .

لقد مات منتحراً . . من أجل امرأة . . وكان هذا آخر ما يمكن أن أتصور أن ولدى يقدم عليه . . لقد كنت أراه دائماً شديد الإيمان . . قوى الثقة بنفسه وبالحياة . . يشع من وجهه الأمل . . وتفيض قسماته بالمرح والرضا .

كنت أعرف أنه يحب ، وأنه كالنحلة يرشف من كل زهرة قطرة . . ولم أنكر عليه هذا . . فما من شاب فى ربيع العمر يخلو قلبه من بذور الحب . . وما حاولت مرة أن أتدخل فى أموره الخاصة ، بل كان أقصى ما أفعله هو

أن أدعو له بأن يهديه الله ويوفقه إلى الزوجة الصالحة .

ولقد خيل إلىّ أن الله قد استجاب دعائى وأن قلبه قد استقر على إحدى الزهرات فقد بدأت مواعيده تنتظم . . وكف عن السهر وعن عبث الشباب . . وحمدت الله الذى هداه بهذا الحب الجديد . . وتمنيت أن تكون صاحبته من أصل طيب ، يشرفنا نسبه ، وأن تستقيم أموره معها . . حتى تكون له الزوجة المنشودة .

وبدا لى فى حبها قريراً هانئاً . . دائم الإشراق ، دائم الفرحة ، حتى لقد أحببتها أنا دون أن أراها ودون أن يحدثنى عنها إلا لماما . . فلقد كنت أحس من هنائه هنائى ، وأستمد من رضاه رضاى .

ماذا يكون من أمرى . . بعد كل ما وصفته لك . . عندما أعود إلى الدار ذات مساء عقب زيارة بعض الأقارب . . فإذا بى أجد ضجيجاً فى الدار ، وإذا بى ألمح عربة الإسعاف تقف أمام الباب . . ثم أستوضحهم الأمر فيقولون لى إن ولدى انتحر ؟

لقد سقطت على الأرض صريعة بلا حراك . . فلما أفقت اندفعت كالمجانين . . أسأل عنه وارتميت على جسده ، غير مصدقة أنه مات . . أو قتل نفسه .

هو يقتل نفسه ؟ ! الإنسان القرير السعيد . . الشديد

الإيمان ، والقوى الأمل . . ينتحر ؟

كيف ؟ ! ! . . كيف يمكن أن يفعل هذا . . ؟

لقد كان مثلا لإنسان سعيد وما أحسست قط أنه يشكو ألماً أو يضمر فى نفسه حزناً . . أيمكن أن يكون قد انتحر بسبب من يحبها ؟

لا . . لا . . إن ولدى لا يمكن أن يقدم على ذلك .

ومع هذا . . فقد حملت إلينا الرسالة التى تركها قبل أن يموت . . الجواب القاطع . . بأنه انتحر . . من أجل امرأة ؟

لقد كانت الرسالة تحمل إلىّ . . الصدمة الثانية .

لقد وجدوها فى ثيابه وكانت موجهة إلى صاحبته وكان بها ما يلى :

« عزيزتى . . . .

أكتب إليك لأقول لك كلمتى الأخيرة قبل أن أفارق الحياة .

لقد حزمت أمرى على الانتحار . ولو تنبأ لى إنسان قبل اليوم بأنى سأموت منتحراً لرميته بالجنون . . ولقلت إنه إنسان مخرف . . فما احتقرت فى حياتى إنساناً كالمنتحر . . ولكنى الآن أحس أن من الغباء أن نبقى على قيد الحياة . . قولوا إننى جبان واتهمونى بما شئتم . فما عدت أعبأ بكم وبدنياكم . لقد أضحيت إنساناً يائساً . . يائساً من كل شىء .

لقد أحببتك ، وما بى من حاجة إلى أن أخبرك بمدى حبى لك . . لأنك تعرفينه خير معرفة . . ولأنى لم أكتب هذا لأشرح لك حبى . . بل لأخبرك برأيى فيك . . لقد أحببتك حباً من نوع لم أعهده فى نفسى . . حباً ملؤه الاحترام والثقة . . وأحسست أن نفسى قد شدت إليك ، وأن مصيرى قد ارتبط بمصيرك . . وأضحيت أنظم حياتى باعتبار أنك قد بت جزءاً منها . . . وأن أحدنا لم يعد له عن الآخر غنى .

ولست أزعم أنى أربأ بالمرأة عن الخيانة . . وأتوقع منها الطهر والعفة ، فأنا شديد الخبرة بخيانة النساء . . ولكن أنت . . أنت بالذات . . كنت أتوقع منك أن تكونى خيراً مما كنت . . كنت أرى فيك نسيجاً وحدك . كنت أضعك فوق مستوى البشر .

ورغم كل هذا . . ما أظننى كنت مقدماً على الانتحار لو إنك خذلتنى . . وبددت أملى بطريقة طبيعية . . وبخيانة عادية . . كغيرها من الخيانات .

بل يخيل إلىّ ، لو أنى ضبطتك مع أى إنسان آخر لكان الأمر يمكن احتماله ، وما كان مثل هذا اليأس يطبق علىّ فيسلبنى صوابى .

أجل . . لو أنك خنتنى مع أى إنسان . . غير أبى . . لاستطعت أن أحتمل .

أما أن أجمع فيك ، وأنت كل شىء . . وفيه وهو أبى ، ويعرف أننى أحبك وأنك منتهى أملى . فذلك مالا أستطيع احتماله .

لست أدرى هل تحبينه حقاً كما سمعتك تقولين له أم أنك تخدعينه ؟ !

هل تخدعيننى ، أم تخدعينه ، أم تخدعين كلينا ؟

وإنى فى حيرة شديدة ، فهو رغم أنه أبى مازال يفيض قوة وفتوة ، ومازالت به القدرة على فتنة النساء وإغرائهن .

إنى فى حالة يأس مخيف . . وانهيار تام ، لقد فكرت فى أن أقتلك ، أو أقتله .. فلم أستطع . . لأنى أحبك وأحبه رغم كل مافعلتماه بى ، وأخيراً فكرت فى أن أقتل نفسى فوجدت أن هذا هو خير حل ، فما عدت فى حاجة إلى نفسى لأنى كرهت الحياة . وما أظن هناك أحداً فى حاجة إلىّ . . اللهم إلا مخلوقاً واحداً . . أحس بالندم من أجله وهو أمى .

أمى الطيبة المخدوعة . . التى أحس أنى أتركها وحدها كاليتيمة فى مأدبة اللئام . . وكالشاة وسط عصبة الذئاب .

إنى أحس أنى جبان لأنى تركتها وحدها . . بينك وبينه .

ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟ إن الله معها . . فهى

امرأة مؤمنة . . أما أنا فقد كفرت بكل شيء . . وانهارت ثقتي في كل شيء . . وبت أشعر أن شفائي في الرحيل عن دنياكم . . دنيا الزيف والخداع .

* * *

تلك ياسيدي هي الرسالة التي تركها ولدي . . أو الطعنة الثانية التي وجهها القدر .

ولست أكتمك القول . أنها رغم كونها شر مايمكن أن تصاب به زوجة لم تروعني كثيراً ، فقد تركتني الصدمة الأولى — موت ولدي — وأنا في حالة ذهول وأصابتني بألم جعل كل ألم غيره يتضاءل . . أو قل إنها قتلتني « وما لجرح بميت إيلام » .

وهكذا مضت الأيام الأولى عقب الحادث وأنا في شبه إغماء ، لاأكاد أهتم لشيء أو أحس بشيء ، حتى بدأت أفيق لنفسي وأتطلع حولي فإذا بي أوشك أن أسلب الطير الآخر .

وأحسست بكره شديد لتلك المرأة التي أصابتني بتلك النوازل والكوارث . . والتي سلبتني أعز مالديّ .. ولدي وزوجي . . ووجدتني أقف أمامها وحيدة عزلاء .

وفي ذات يوم صممت على أن أنهي الأمر وأن أذهب لمواجهتها . . وأريها الرسالة التي تركها لها ولدي ، وأسألها أن ترحمني . . وتترك لي زوجي .

وذهبت إليها ، وطرقت بابها . . وأنا أحس أنى ذليلة كسيرة . . كأنى سائلة استجدى .

ورأيتها لأول مرة .. مخلوقة صغيرة تملك أمضى وأفتك ماتملكه امرأة من روعة وفتنة .

وبدأت حديثى معها فى لهجة مستعطفة متوسلة . . وهى تضع ساقاً على ساق . وتتشاغل بتمشيط شعرها . وأعطيتها الرسالة . . فأخذت فى قراءتها دون أن يبدو على وجهها أى علامة من علامات الحزن والتأثر .

وأخيراً رفعت حاجبيها وتساءلت فى دهشة :

ـــ لست أدرى ماذا تريدين ؟

ـــ أريد زوجى .. رديه إلىّ . يكفى أنى فقدت ابنى .

ـــ اسمعى ياسيدتى أنا لست مسئولة عن كل إنسان ينتحر ، ولا أستطيع أن أمنع إنساناً من حبى . . هل تريدين أن أفعل لك شيئاً بعد هذا ؟

وأحسست أن قولها قد مزق حشاى . . وعزّت على نفسى أن أهينها إلى هذا الحد .

ولم أستطع سوى النهوض والانسحاب ذليلة كسيرة . . كما أتيت .

ياللقدر العجيب . . ألم تجد هذه المخلوقة من تسلط عليه سياطها سواى . . ألم تجد من هؤلاء البشر سوى . . ولدى وزوجى ؟

ورفعت بصرى وأنا أغادر الغرفة . . فواجهتنى صورة امرأة معلقة بالجدار ، وأحسست من مرآها برجفة تسرى فى بدنى .

ووجدتنى دون تفكير أسأل عمن تكون .

وأجابتنى المرأة فى شىء من التعجب :

— إنها أمى . . أتعرفينها ؟

أمها ! ! ورأيت الأعوام تترى أمامى ، وإذا بالماضى يتجدد . كيف لا أعرفها ؟. وقد نزعت منها خطيبها فى زمن مضى . . لقد سلبته منها بعد أن أحب كلانا الآخر ولما تمض بضعة أشهر على خطبته لها .

أجل . . لقد كان زوجى الذى انتزعته منى هو الخطيب الذى انتزعته من أمها فى زمن مضى .

وتذكرت نصيحة أمى يومذاك . . وتحذيرها إياى بألا أتزوجه . . ولا أسلبه من خطيبته وقولها إن الظلم لابد مردود ولو بعد حين .

إن القدر لم ينس فعلا . . بعد ثلاثين عاماً .

وخرجت أتعثر فى أذيالى محنية الظهر مطأطئة الهامة .

اللهم هبنا من لدنك رحمة واغفر لنا ، واعف عنا .

لقد كانت المسألة كلها . . لا تعدو أن تكون ثأراً قديماً .

امرأة قاتلة

وتطاير من نفسي الحب والطيبة والخلق والهدوء والاستكانة .. تطاير كل هذا ولم يبق في نفسي سوي احساسي بالجرح .. ووقع بصري على مسدسه الذي يحتفظ به في دولابي ، وبحركة لا ارادية مددت يدي وتحسس أصبعي الزناد ثم ضغطت عليه .

اسقنيها فقد رأيت بعيني
في قرار الجحيم أين مكاني

اسقنيها . . فقد نضب معين الروح وجف ماء القلب . . اسقنيها علها تغرق أكداس المرارة وتفتت صخور اليأس .

اسقنيها علها تطفىء حرقة في النفس ، وتبل سعيراً في الفؤاد . . فإن لم تفعل فلعلها مطفئة ذبالة حس ، هو كل ما تبقى لي لينكأ جرحي بين آونة وأخرى ، ويذكرني بأن كومة الحطام التي تبقت مني ما زالت كائناً حياً يحس ويتألم ويفكر ويتذكر .

اسقنيها علها تذهب ببقية وعي وفضلة حس . . هو كل ما يربطني بالحياة ويشدني إلى آلامها وأوجاعها .

إني أكره الحياة ، لأنها شيء عويص غير مفهوم . . إنها لغز محير . . أو قد كتب على الإنسان أن ينتهي دائماً — مهما سلك من سبل — إلى مثل هذا المصير البائس التعس ؟

ألا يمكن أن يغير مسلكنا في الحياة - إذا قوّمناه - خاتمتنا الشقية ؟ أم أن الشقاء مادام قد كتب علينا فلابد من وصولنا إليه مهما أجهدنا أنفسنا في تجنبه والفرار منه ؟

لو عرفت أنى سأنتهى إلى هذا المصير ، لسلكت إليه أهون السبيل .. ولو عرفت أنه سواء علينا كنا مخلصين أو منافقين . . وسواء كنا من أصحاب المبادىء والمثل ، أو كنا أوغاداً لئاماً . . وسواء كنا ذوى قلوب عامرة بالإيمان والحب ، أو كنا ذوى قلوب جامدة قاسية ، فإن مآلنا واحد ومصيرنا لا يتبدل . . لو كنت أعرف هذا للفظت المبادىء وحطمت المثل ، ولسرت إلى مصيرى حتى بلغته ، جامدة القلب ، عديمة الحس . . خائنة كاذبة منافقة .. كغيرى من الكاذبات الخائنات المنافقات .

كنت صغيرة ، ولم أكن أتصور الحياة قط يمكن أن تمعن بنا فى السخرية إلى هذه الصورة . . وكنت أحاول دائماً أن أفكر بعقلى السليم وتفكيرى المتزن . . وكنت أنظر إلى الحياة نظرة هادئة مستوعبة ، أحاول أن أضع الشىء دائماً فى موضعه .. وكنت أهدف فى حياتى إلى أشياء ما ظننت قط أن الحياة ستبخل علىّ بهـــا . . وخاصة إذا ما سلكت إليها الطريق الصواب . . الذى يضمن لى أن يوصلنى إليها .

كنت دائماً مخلوقة طيبة . . ما فكرت فى أن أوذى أحداً ، أو أتكبر على أحد . . ورغم هذه السنين الطوال

التى قضيتها تحيطنى مظاهر الغنى والثراء ماأحسست فى قرارة نفسى بمتعة من هذه المظاهر ، فقد كنت أكرهها وأكره أن أتميز عن سواى بما لافضل لى فيه ، وكنت لاأرى فيها سوى مظاهر زائفة وشكليات تافهة لا يمكن أن تبعث فى نفسى إحساساً بميزة أو شعور بفخر .

هكذا كنت دائماً . . أرستقراطية ثرية فى مجرد المظهر ، أما فى باطنى فقد كنت مخلوقة منطوية هادئة بسيطة طيبة .

كنت أفهم الحياة جيداً ، وأدرك مدى زيف مظاهرها ، ولذا فلم أكن أطمع منها فى أكثر مما يمكن أن تطمع فيه أية فتاة بسيطة عاقلة ، وهو أن أكون زوجة محبة وفية لزوج محب وفى .

ولم أكن أظن أبداً أن هذا المطلب بالأمر المستعصى ، ولم أكن أظن هذه الأرض الواسعة ، ستبخل على فتاة طيبة بندّ طيب . . وكنت أعتقد أن المخلوق الطيب إذا ما سلك الطريق السوى فلابد له أن يصل إلى هدفه البسيط المعتدل .

ومع ذلك فقد اضطربت بى ظروف الحياة ، وأجبرتنى على الرحيل عن أرض الوطن ، ولم يخطر ببالى وقت الرحيل أن الغيبة ستطول . . بل ظننت الرحلة مطافاً قصيراً إلى العودة منتهاه .

وكان الحلم الجميل يداعب نفسى . . وكان الأمل الحلو يتراءى لى فى أفق الحياة المشرق . . وما أظننى كنت فى لهفتى على صنو النفس بالشاذة التفكير ، أو المرتكبة أمراً إدّاً . فما كنت ، كما قلت ، أكثر من فتاة ، وأى فتاة لا تتلهف إلى صنو النفس ، وتوأم الروح ، وشريك الحياة ؟

لم يكن عجيب إذن أن أتلهف على الحب ، بل العجب كان فى ألا أتلهف عليه ، فتلك هى طبيعة البشر وأنا بشر قبل أن أكون غنية أرستقراطية . . وحتى لو كانت الأرستقراطية تتلف قلوب الفتيات وتخمد مشاعرهن وتصيبهن بشذوذ فى التفكير فقد كنت أنا غير ذلك ، لأنى كما قلت كنت ضعيفة الإحساس بتلك المظاهر مبغضة لها .

وهكذا رحلت عن أرض الوطن ، وبنفسى لهفة إلى المجهول الذى يتلهف عليه القلب ويحن إليه الفؤاد .

وفى خلال الرحيل صادفته . . ذلك المخلوق الذى استطاع أن يتقمص الأمل المنشود والأمنية الحائرة .

لا أريد أن أبرر حبى له ، أو أعلل أسبابه . . فأنتم أدرى بأن الحب شىء لا يمكن تعليله ولا تبريره ، إننا عندما نحب لا نستطيع أن نجد لحبنا أسباباً أو عللا . . فهذا شىء يصاب به الإنسان كأى مرض لا تجدى فيه أى وقاية . . إنه

شيء يفرض علينا فرضاً . . لا سبيل لنا إلى مقاومته ، ولا الوقاية منه .

هذا شيء مفروغ منه ، وقضية مسلم بها ، ولا أظن أحداً منكم يجاهله أو ينكره ، فكما أن الإنسان لا يملك أن يوقف الصواعق ، أو يمنع الزوابع ، أو يهدىء الزلازل .. فهو أيضاً لا يستطيع أن يتقى أخطار الحب ، أو يتجنبه ، أو يجعل نفسه بمنجاة منه .

ورغم كل ذلك فإنى لا أعدم المبررات التى قد تخفف من روعة هؤلاء المرتاعين ، وتحد من دهشتهم وذهولهم ، لأننى أحببت رجلا فقيراً من غير طبقتى !

لقد كنت فى حاجة إلى الحب ، وكان هو وحده — فى هذه الغربة الطويلة — الذى يملكه ، وبمرور الزمن وطول الغربة ، وفرط حبه وفرط حاجتى إلى ذلك الحب ، لم أملك سوى قبوله ، ومبادلتى إياه الحب المدخر فى قلبى للإلف المنتظر والخل المرتقب !

وهكذا وجدت الحياة قد كرمت وجادت علىّ بأمنيتى ولكنها لم تمنحنى إياها بغير ثمن . . بل بثمن كنت على أتم استعداد لأن أدفعه عن طيب خاطر .

كان الثمن باهظاً فى نظر الناس ، الناس المخدوعين بزيف

الأوضاع وأوهام المظاهر . أما فى نفسى فلم يكن باهظاً بل كان أتفه من أن يسمى ثمناً .

لقد رأى من حولى أن حبى له ، قلباً للأوضاع وخرقاً للتقاليد . . ونصحونى بأن أعدل عن هذا الحب ، وأنبأونى بأنى مازلت فتاة طائشة مخدوعة بأوهام الحب وبريقه الزائف الخداع ، وأن هذا الطريق السرابى الشائك الذى أحاول السير فيه والذى أتوهمه ملىء بالورود والرياحين . . لن يلبث حتى يذهب سرابه ، وتذبل وروده ، وتبدو وحشته وقفره .

ولكنى لم آبه لآرائهم . . فقد كنت مقتنعة تماماً بمبادئى فى الحب وآرائى . . وكنت أعرف تماماً أن الطريق الذى أوشك أن أسير فيه سيحقق لى بغيتى وينيلنى مطلبى !

وهكذا أصررت على المضى فى طريقى ، وأصروا هم على أن أتجنبه وأنكص عنه ، ولكنى ضربت بإصرارهم عرض الحائط ، فثارت ثائرتهم وجن جنونهم ، وهددونى بأن يحرمونى من الإرث ويتخلوا عنى ويعلنون براءتهم منى .

هذا هو الثمن الذى كان علىّ أن أدفعه . . ثمن فادح فى مظهره . . بخس فى حقيقته . . لقد هتف بى القلب الخفاق النشوان : ادفعى الثمن فإنه يستحق أضعاف أضعافه .

ودفعت الثمن راضية مغتبطة ، ورضيت من أجله بأن أفقد عطف الأهل والأصدقاء ، وأن أقطع كل صلتى بمن عداه ، وأن أبدو فى نظر الناس طريدة مشردة منبوذة .

ومع ذلك فما أحسست قط بأى ندم ، وما رأيت فى فعلتى أية تضحية . . فقد كان كل ما خسرته من عطف ومال لا يكاد يعادل مثقال ذرة واحدة من الهناء الذى كنت أحسه بقربه .

وتزوّجنا وبدأنا حياتنا معاً .. حياة رغدة . . هانئة . . بسيطة .. كان كل همى فيها أن أهيىء له الراحة ، وأبدو له قريرة راضية ، وأزيل من نفسه أى إحساس بأنى قد ضحيت من أجله ، ولم يكن ذلك بالأمر العسير ، فقد كنت فعلا قريرة راضية قانعة ، وما كنت أحس قط أنى قد فعلت أية تضحية .

ومرت بنا الأيام الأولى للزواج ، وأنا أتمتع بقدر

من السعادة . . ما أظن أن الثراء والمظهر كانا يستطيعان أن يهيئا لى شيئاً منها .

لقد تحققت مبادئى فى الحياة . . وثبت لى أن المخلوق الطيب إذا ما سلك الطريق السوى ، فلن يبخل عليه القدر بتحقيق أمانيه . . وأن خير ما نفعله فى الحياة لكى نضمن سعادتنا هو أن نختار الهدف الصائب ، ثم نسلك السبيل إليه متخطين فى عزم كل ما يصادفنا من عقبات تحاول أن تجنبنا الطريق وتغرينا بغيره .

وكان يعاودنى حنين إلى الأهل بين آونة وأخرى . . ولكن قربه كان يصبرنى على فرقتهم . . وكان فرط محبته وتقديسه لى يبعث فى نفسى عزاء دائماً عن كل ما فقدته من عطفهم ، وتقنعنى أنه يستحق أن أفقد من أجله كل شىء .

وانقضت الفترة الأولى من الزواج ، ونحن فى عزلة تامة عن الناس . . وكنت دائمة الضحك والمرح ، محاولة فى كل وقت أن أبدد ما يمكن أن يخيم علينا من سحب السآمة والملل .

وقد تتساءلون : من أين تأتى سحب السآمة والملل ، وعلى

من تخيم وأنا القانعة الراضية الهانئة ، وهو الذى ما كان يحلم قط بأن يلقى مثل هذه التضحية ؟

ولكنى لا أجد مفراً من الاعتراف . . بأنى رغم كل مافعلت من أجله لم أستطع أن أمنع هذه السحب من التسرب داخل وكرنا والإحاطة به . . وبدا لى أنه لا يحاول كثيراً أن يعاوننى فى مهمتى وأنه لم يعد يهمه أن يكتم ضيقه .

وهكذا وجدت نفسى رويداً رويداً فى موقف عجيب وتطور الأمر بى حتى انقلبت الآية بيننا ، فبت أستجدى مرضاته بعد أن كان يتلهف على رضاى .

وبدأنا نخرج إلى المجتمع ، ونختلط بالناس، فقد أدركت أن طول الوحدة يوشك أن يعصف بحياتنا ، والتمست له العذر فيما أصابه من ملل ، لا سيما أنى وجدته بعد طريقته الجديدة فى العيش ، واختلاطنا بالناس ، قد عاد إلى سابق رضاه وذهب عنه سخطه وتبرمه .

ومرت بى بعد ذلك فترة عجيبة لم أكن أدرى أنا نفسى مبلغ رضاى عن الحياة ، ولا مبلغ سعادتى وهنائى . . ولكن الشىء الذى كنت واثقة منه هو أنى كنت أبذل كل جهدى لأحافظ على سعادتى . . فقد كان يفزعنى أن أجد نظريتى فى الحياة قد خابت ، وأن نظرية من حولى قد

أصابت ! وأن قولهم عن الطريق السرابى والورود الذابلة يمكن بمثل هذه البساطة والسهولة أن يتحقق .

لقد كرهت أن تفشل جهودى فى الاحتفاظ بحياة مثلى، وتفشل لغير ما سبب معقول ولغير ما ذنب جناه أحد . . سوى خمود المشاعر وركود الحياة ، وصممت على أن أبذل كل ما فى وسعى حتى لا أكون موضع شماتة الشامتين . . وأخذت أتفانى فى حبه وخدمته . . وفعلت مالاتفعله خادمة كرم معها القدر فأغرى بها سيدها وأقدم على زواجها .. فهى تحاول الاحتفاظ به !

أجل ! لقد انقلب الحال فبدا كأنه هو صاحب التضحية .

ولم أكن أشك فى أن المثابرة والتصميم وقوة العزيمة والصبر يمكن أن تبلغنا أمانينا وتحقق مآربنا ، مهما بدت صعبة التحقيق بعيدة المنال . . ولقد صدق ظنى فبدأت أستعيد رويداً رويداً أرضى المفقودة من السعادة والهناء وأحسست أننى أنقذت حياتى من شر الملل والسآمة .

وهكذا استعدت رضا زوجى ، واستعدت هناءتى . . باستعادته هناءته ، واستطعت أن أجزم أن مله وتبرمه لم يكن أكثر من عارض طارىء .

هذا هو ما استطعت أن أجزم به . . حتى حدث ذات صباح حادث بسيط تافه .

كنت فى خارج الدار أبتاع بضعة حاجيات كنا فى حاجة إليها ، وكنت قد أتممت كل أعمالى التى تعودت أن أقوم بها فى البيت فى كل صباح من تنظيف الأثاث وترتيبه وكذلك أعددت الطعام إعداداً مبدئياً ، وتركته للخادمة حتى تتم نضجه .

وكان زوجى قد ذهب إلى عمله . . ولم يكن يعود منه قبل الساعة الثانية .

وقد عقدت العزم على أن أعود إلى البيت فى الساعة الواحدة حتى أتأكد من أن كل شىء على ما يرام .

ووصلت إلى البيت والساعة تدق الواحدة ، وحثثت الخطى على الدرج حتى وصلت إلى الباب ودفعت فى ثقبه بالمفتاح الذى كنت أحتفظ به معى ، وهرولت إلى المطبخ لأطمئن على الطعام ، فوجدت القدر يفور ولم أجد الخادم ، وبحثت عنها فى الحمام فلم أجد لها أثراً . . وكان أول ما مر بذهنى هو أنها قد هربت ، وخشيت أن تكون قد سرقت بعض الحلى والنقود ، فأسرعت إلى حجرتى لأطمئن على

الصندوق الذى أضع فيه الأشياء الثمينة وأغلق عليه دولاب ملابسى .

أسرعت إلى حجرتى ودفعت الباب ، ولكنى لم أتقدم إلى دولاب الملابس ، فما كانت بى هناك من حاجة إلى الشك فى أنها قد سرقت نقودى أو حلي . . لأنى بنظرة واحدة استطعت أن أتبين أنها قد سرقت شيئاً أثمن من هذا .

لقد سرقت زوجى !

أجل ! لقد وجدتها هناك فى حجرة نومى ، وعلى فراشى وبجوارها الرجل الذى ضحيت من أجله بكل ما أملك .

لقد ضحى بى هو من أجل خادم !

ومرت بذهنى فى سرعة البرق . . المبادىء السامية . . والأهداف العالية ، والحياة المثلى ، والتضحية .

ولم أستطع أن أكتم ضحكة ساخرة انطلقت من شفتى .

إذن فقد كانت هى التى نجحت فى تبديد سآمته وتبرمه .

لقد كانت هى وحدها . . ولم تكن جهودى أو تفانى فى حبه وخدمته وراحته . لم يكن تصميمى وعزمى ومثابرتى وصبرى هو الذى حقق أملى فى إسعاده ، بل كانت هى !

وتخيلت الأهل والصحاب الذين ضربت بأقوالهم عرض الحائط ، والذين قلت لهم إن الحب هو كل شىء . .

تخيلتهم حولى يرون المنظر الذى أبصره . . ترى ماذا هم قائلون ؟

أقسم أن أفكارهم عندما حذرونى لم تكن قد وصل بها توقع السوء والخذلان ، هذا الحد .

وران الصمت على الحجرة لحظة . . صمت الذهول والدهشة ، ثم وجدت وجهه قد علاه الحقد والغضب . . وسمعته يصرخ بى آمراً إياى بالخروج .

هكذا ! أنا أخرج ؟ طبعاً . . لقد قطعت عليه متعته . . وشاركته فى خلوته .

وجن جنونى ، فقد وقع على فعله وقوله وقوع الصاعقة .

وتطاير من نفسى الحب والطيبة والخلق والهـــدوء والاستكانة . . تطاير كل هـذا . . ولم يبق فى نفسى سوى إحساسى بالجرح . . ووقع بصرى على مسدسه الذى يحتفظ به فى دولابى . . وبحركة لا إرادية مددت يدى ، وتحسس أصبعى الزناد . . ثم ضغطت عليه .

وفى لمح البصر انطلق الدوى ، ثم وجدته أمامى يتلوى فى الفراش متخبطاً فى دمائه !

وأحسست براحة شديدة ، ولم يتملكنى أقل ندم . .

وغادرت الحجرة فى سكون ، وارتميت على أقرب مقعد .

* * *

إنهم سيبرئون ساحتى .. ولكن سواء عندى البراءة أم الإدانة .. فما عدت أهدف فى الحياة إلى شىء .

لقد كنت فتاة طيبة مصلية . . ولكنى الآن لا أشعر فى الطيبة والصلاة بأى عزاء .

شىء واحد هو الذى أجد فيه عزائى . . ولو كنت أعرف أن هذا هو مصيرى لسلكت إليه من أول الأمر أهون السبل :

اسقنيها فقـــد رأيت بعينى

فى قـــرار الجحيم أين مكانى

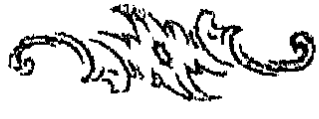

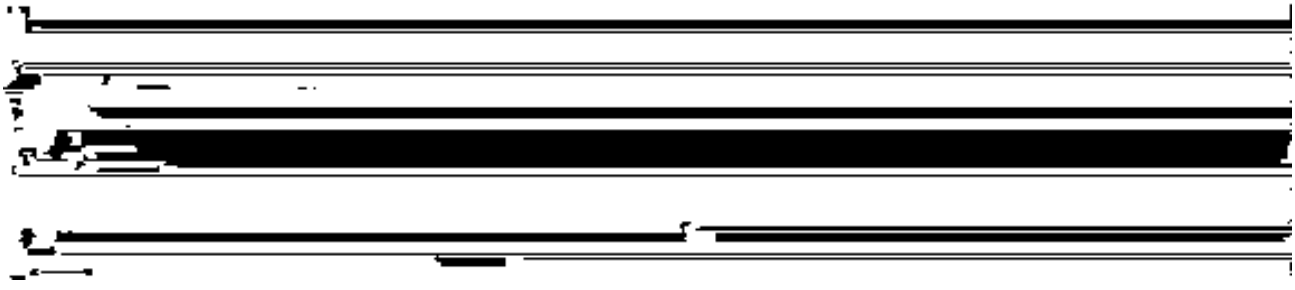

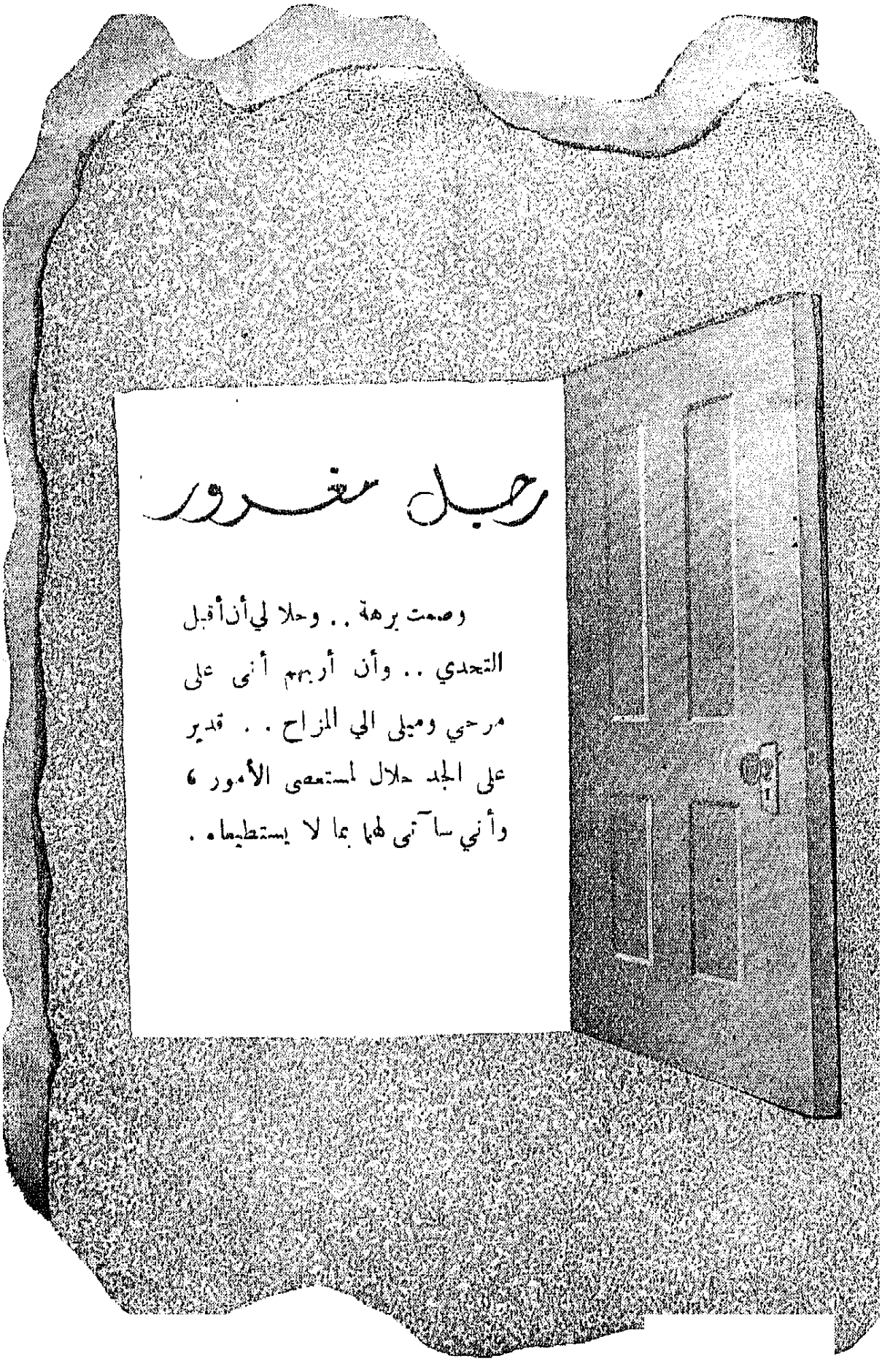

رجل مغرور

وصمت برهة .. وخلا لي أن أقبل التحدي .. وأن أريهم أني على مرحي وميلي الي المزاح .. قدير على الجد خلال لمستعصى الأمور ، وأني سآتي لهما بما لا يستطيعاه .

كنت أظن نفسى عاقلا . . وكنت أظن التجارب والسنين قد أحاطتنى بسياج منيع من الحكمة والتبصر . . كنت أظن ذلك . . حتى حدث ماحدث فعلمت أنى مازلت مغروراً مأفونا .

وأنى سأظل إلى الأبد طفلا كبيراً ، وأنى خدعت نفسى فحملتها من الثقة مالا طاقة لها به .

بدأت القصة بلقائنا فى لبنان . . عائلتان مصريتان تبتغيان الراحة والسكون فى مصيف هادىء .

وكان للقائنا فرحة شديدة . . يعرفها الغرباء الحائرون عندما يلتقون ببنى أوطانهم فى أرض غريبة .

ولم يكن هذا أول لقاء لنا . . فقد كانت بيننا معرفة قديمة نشأت عن زمالة الزوجتين فى أيام الدراسة وعن صداقتى للزوج صداقة اللقاء العابر والتحية الخاطفة .

وجمعنا فى ضهور الشوير فندق واحد وسكن متجاور وسرعان ماتوثقت عرى الصداقة حتى أضحينا عائلة واحدة .

وكانت عائلتى مكونة منى ومن زوجتى ومن ابنتى فى السابعة ، وابنى فى الثالثة . أما العائلة الأخرى فكانت

تتكوّن من الزوج والزوجة وابنتهما الكبرى فى السادسة عشرة وابنتهما الصغرى فى الثامنة .

وكنا نكون فى جلستنا شلتين .. الشلة الكبرى مكونة من الأربعة الكبار : الزوجين والزوجتين .. والشلة الصغرى مكونة من الأربعة الصغار الثلاث بنات والولد .

ورغم تفاوت الأعمار فى الشلة الصغرى فقد كان الانسجام بين أعضائها تاماً والاتصال وثيقاً ، وكانت تتزعمها ليلى الابنة الكبرى لصاحبى ، ولم تكن تبدو فى لهوها أكثر من طفلة غريرة لافارق بينها وبين ابنتى .

وفى ذات ليلة وقد جلسنا — أعنى الشلة الكبرى — نتسامر فى إحدى شرفات الفندق سمعنا صراخاً صادراً من حجرة الأولاد فصاحت زوجة صاحبى تتساءل ، وقد استطاعت أن تميز فى الصراخ صوت ابنتها الصغرى .

— ما بك ياكوثر ؟

وسرعان ماأطل علينا وجه ليلى وعليه سيماء الغضب وأجابت أمها :

— لقد ضربتها ياماما . . لأنها مزقت فستان العروس

الذى صنعته لها . . ورسمت بالقلم فى إحدى كراساتى ، وقد حذرتها من ذلك مائة مرة .

ـ اسكتيها ياليلى وصالحيها . . فلست أريد أن أسمع صوت بكائها . . . كونى عاقلة ياليلى فإنك أنت الكبرى .

ـ وماذا أفعل لها ؟ لقد غاظتنى . . ولابد أن أؤدبها .

وهزت ليلى كتفها ثم اختفت داخل الغرفة .

ووجدت الأب يهز رأسه أسفاً ويضرب كفاً بكف ويقول :

ـ لست أدرى متى ستكبر هذه البنت . . فيما مضى كانت البنت لا تبلغ السادسة عشرة وإلا وقد صارت امرأة لها ثلاثة أولاد . . واليوم قد بلغت السادسة عشرة فهى مازالت تتعارك مع أختها من أجل فستان العروسة . . ترى متى تعقل وتكبر ؟ !

وضحكت .. إذ لم أر المسألة تستحق كل هذا الأسف من صاحبي وقلت له مهدئاً :

ـ بكره تعقل وتكبر . . دعها تتدلل فى كنفك وفى عزك . . علام العجلة ؟

ـ أظن ستة عشر عاماً كانت كافية لأن تعقل وتكبر وتقدر . . ولكنها للأسف لاتقدر شيئاً .

ـ وماذا تريد منها أن تقدر ؟

وأجابت الأم ضاحكة :

ـ تقدر طبيعة الأوضاع فى الحياة . . وتفهم أنها لابد أن تصبح عما قريب زوجة مسئولة عن بيتها وزوجها وأماً مسئولة عن أولادها .

ـ هذه أشياء ستفهمها مع الزمن .

ـ إنها لاتريد أن تفهمها . . إنها لاتريد أن تفهم سوى اللعب والعرائس والمدرسة والتلميذات .

ـ ولكن ماذا يقلقكما من هذا ؟ ! وأى شىء يدعوكما إلى التعجل فيه ؟

ـ يقلقنا أنها مخطوبة . ولكنها ترفض « الخطوبة » . ترفضها وتثور عليها بطريقة صبيانية جاهلة بلهاء . . كأنها تظن أنها ستظل طيلة عمرها صبية تلعب فى بيت أبيها .

ـ ولكنها على أية حال صغيرة ، وليس هناك خوف من أن تفلت منكما فرصة خطوبتها هذه . . إن الفرص مازالت كثيرة .

وساد الصمت برهة أشعل الأب فيها سيجارته ثم عاد يدلى بحجته قائلا :

— أولا . . هى ليست صغيرة بل كما قلت لك فتاة فى السادسة عشرة يعنى امرأة ناضجة . . وفترة الخطوبة قد تستغرق سنة أو سنتين .. فهى والحال كذلك لن تتزوج قبل الثامنة عشرة ، ولا أظن هذه السن تعتبر غير ملائمة للزواج. أما من حيث أن الفرص مازالت كثيرة فأنا لا أرى هذا . . إن الخطيب شاب مثالى لا عيب فيه ولا هنة . . إنه مهندس نابغة . . كريم الخلق ، طيب الأصل .. وافر الثراء .. حسن المظهر . . كل شىء فيه ممتاز . . ولست أظن الإنسان يصادف مثله كثيراً فى الحياة . . فمن الغباء أن نرفضه لمجرد أنها لا تفهم طبيعة الأوضاع فى الحياة .. إنى أعتقد أن هذه الفرص لا تقبل على الإنسان إلا مرة واحدة . . فمن الحمق أن نتركها تفلت .

ووجدته على حق . . فالفتاة ناضجة شكلا وجسداً . . وفرص الزواج الصالحة ليست متعددة فى أيامنا هذه ، فإذا كان الخطيب ، كما وصف ، فمن الحمق رفضه . . إن الفتاة الحمقاء المدللة لا تريد الزواج لأنها لا تعرف ما هو الزواج .. ولأنها تظن أنها يجب أن تظل هكذا ترتع فى كنف أبيها .

وعجبت من ظروف الحياة . . كيف يبتلى بعض الناس

بالنعم . . لأن حالة هذه البنت يعتبرها بعض الناس نعمة فأنا أعرف إناساً يشكون من فجور بنات هذا الجيل ومن أن البنت أضحت وهى فى الثانية عشرة تفهم كل شىء ، وأنها عندما تبلغ الرابعة عشرة يحطم قلبها مالا يقل عن عشرة حوادث عشق . . وفى السادسة عشرة تشكو من أنها أضحت عانساً بائرة .

ولم أملك سوى الضحك وقلت لصاحبي وزوجته :

— يبدو لى أن الذنب ذنبكما . . فقد كان يجب عليكما أن تتفاهما مع البنت وتصادقاها ، وألا تتركاها هكذا تمضى جل وقتها مع الأطفال الصغار وألا تعاملاها كما تعاملان أختها الصغرى . . على أية حال لست أرى المسألة مستعصية الحل ويخيل إلىّ أن حلها يحتاج إلى بعض الصبر فى محاولة إقناعها وإفهامها .

— لقد حاولت عبثاً أنا وأمها . . إن عقلها زاخر بالتفاهات . . إنه لم ينضج بعد . . بل هو ما زال عقل طفلة غريرة .

— لا . . لا . . هذا كلام لا أفهمه . يجب أن تبذلا بعض الجهد .

وأجابت الأم يائسة :

ـــ لقد بذلنا كل مافى وسعنا لإقناعها بقبول الخطيب ولكن جهدنا ذهب سدى .

ـــ الجهد لايكون بإقناعها بقبول هذا الخطيب بالذات بل يجب أن يبذل الجهد لإفهامها طبيعة الحياة . . ولتوسيع مداركها وإيقاظ وعيها ونقل تفكيرها من تفكير طفلة إلى تفكير امرأة يجب أن تخرج من ذلك الركود الذهنى .

ـــ لافائدة .. إنها مصرّة على أن تكون طفلة .. ومصرّة على رفض الخطيب .

ولكنى مع ذلك لم أقتنع بأن حالة الفتاة مستعصية الحل ، بل بدا لى أنه يمكن علاج الفتاة بشىء من الأناة والصراحة ، وخيل إلىّ أنى أستطيع أن أمد يد المساعدة وأنى قد أكون أقدر منهما على تنمية تفكير الطفلة لاسيما وأنه لايقوم بينى وبينها ذلك الحجاب الثقيل من احترام الأبوين وخشيتهما .

أجل . . إننى أقدر بلا شك على التفاهم معها . . فأنا مخلوق مرح مهزار لاأعتبر كثيراً قيم الأعمار والمراكز . . بل كثيراً ماأندمج فى اللعب مع الأطفال حتى كأنى واحد منهم .

والطفلة نفسها لاتنفك تدعونى إلى اللعب معهم مناديتى

مازحة . . بـ « أنكل جو » سائلة إياى أن أصنع لهم طيارة أو زمارة .

ولم أكن أرفض اللعب أو أخجل منه . . رغم ما كنت أتهم به من الهيافة . . بل كنت أقضى الساعات لاهياً عادياً قافزاً واثباً . . مستمعاً إلى شكواهم . . قاضياً فى نزاعهم . . وهم يمسكون بخناقى ويتواثبون على كتفى .

كنت أنا الذى أهبط إلى مستوى الطفولة التى ترتع فيه البنية . . وكانت هى التى تشدنى إليها . . من أجل الضحك والمرح واللعب .

أفلا أستطيع — وأنا « أنكل جو » صديقها الحميم — أن أرفعها مرة إلى مستوى الفهم والإدراك والتقدير . . من أجل مستقبلها ؟

دار كل هذا فى رأسى خلال فترة الصمت التى أعقبت النقاش . . ويبدو أن المناقشة بين ثلاثتنا أنا والأب والأم ، كانت لابد مؤدية إلى نفس التفكير فى الرؤوس الثلاثة . . وإن مادار فى ذهنى قد انعكست منه صورة فى كل من ذهنيهما فقد سمعت الأم تضحك ضحكة خافتة ثم تقول :

— لِمَ لا تجرب أنت ؟ فقد تستطيع أن تنجح فيما فشلنا

فيه . . حاول أن تخرجها عن ذلك اللعب الصبيانى . . فقد تفهمك وتستمع إليك . ألست صديقها الحميم « أنكل جو » ؟

وضحكت زوجتى وقالت مازحة :

— لا تنتظرى منه خيراً . . إنه لايصلح فى أعمال الجد قط . . إنه لايجيد سوى اللعب بالنحلة والطيارة . . إنه هو نفسه فى حاجة إلى من يرفعه من مستوى الطفولة .

وصمت برهة . . وحلا لى أن أقبل التحدى . . وأن أريهم أنى على مرحى وميلى إلى المزاح . . قدير على الجد حلال لمستعصى الأمور ، وأنى سآتى لهما بما لايستطيعاه .

ورأيت الثلاثة يرمقوننى وعلى شفاههم ابتسامة انتظار . فقلت متحدياً :

— دعوها لى . . إنى كفيل بها . . لن تعود من المصيف إلا وقد قبلت الخطيب . . من يراهن ؟

وأجاب الأب ضاحكا :

— لا داعى للرهان . . فإنك لاشك خاسره . . يكفى أنك ستضيع وقتك عبثاً .

— بل إنى أقبل الرهان أياً كان . . خمسة جنيهات لخمسة . ما رأيكم ؟

ـ حسناً . . قبلت .

وغادرنا الشرفة ضاحكين . . وفى اليوم التالى بدأت العمل .. لكسب الرهان ولكسب مستقبل الصبية وإنقاذها من تفاهة تفكيرها .

وكنت أظن المسألة لن تستغرق منى أكثر من جلسة أو جلستين . . أفهم الصبية خلالها أنها قد كبرت وأنها لابد أن تتحمل مسئوليتها فى الحياة كزوجة وأم . . وأشرح لها متعة الحياة التى توشك أن تقبل عليها . . وكيف سيكون لها بيتها وكيانها المستقبل . وكيف ستكون ربة أسرة وسيدة بيت .

لقد أخذت أحضر كل هذا فى ذهنى كما يعد المحاضر محاضرته .. وكنت أعتمد كثيراً على لباقة لسانى وقوة إقناعى وعلى ثقة الفتاة بى وعلى التفاهم الذى نشأ بيننا فى اللعب ، والمرح .

وصحبتها فى نزهة قصيرة فى الجبل فى الصباح المبكر.. زاعماً لها أنى أريد أن أريها عشاً للعصافير مليئاً بالبيض الملون.

وقالت لى وهى تشير باصبعها مهددة :

ـ إياك أن تكون كاذباً . . إنى لم أر من قبل بيضاً ملوناً للعصافير .

— سترين بعينك أنى لا أكذب .

— لم نأخذ معنا سامية ونادية وجمال .

— إنهم مازالوا نائمين ولو تأخرنا لفقس البيض .

وسرت وإياها فى الطريق الجبلى الضيق ، نهز أيدينا المتشابكة ونصفر فى مرح وجذل حتى بلغنا صخرة صغيرة أشبه بالمقعد تشرف على سفح الجبل المكسو بأشجار الصنوبر فطلبت منها الجلوس .

ولكنها سألتنى مستفسرة :

— أين العش ؟

وأخذت أتلفت حولى متصنعاً الدهش قائلا :

— عجباً . . كان هنا بالأمس ياليلى . . أين ذهب ؟ لقد كان فوق هذه الشجرة بالذات . لابد أن تكون الأم قد نقلته . . على أية حال دعينا نستريح . . ونتحدث برهة .

وجلست بجوارى ونسيم الصبح الرطب يلفح وجهينا والشمس ترسل مقدماتها الأرجوانية من وراء الجبل . وبدأت المحاضرة . . محاضرة أقسم لكم أنها تعتبر من روائع الكلم . . وأحسست خلالها بإعجاب بنفسى وبقوة منطق

وذلاقة لسانى . . وتوقعت فى نهايتها . . أوحى قبل نهايتها أن تتركنى الصبية وتعود راجعة إلى أبويها . . ثائرة عليهما لتركها حتى الآن بلا زواج .

ولكن المحاضرة بلغت نهايتها والفتاة مازالت جالسة بجوارى وقد أخذت تتسلى بقضم أظافرها .

وقلت لها ناهراً :

ــ ليلى . . كفى عن قضم أظافرك . . لقد كبرت . . وكان مفروضاً عليك أن تتركى أناملك تنمو وتطليها بالمانكير بدل أن تقضميها حتى يبدو لحم أظافرك .

ثم صمت برهة تمالكت فيها نفسى وقلت مترفقاً :

ــ مارأيك ياليلى بعد كل ما قلت . . ألا توافقين على الخطبة ؟

ــ لا . . لا ياأنكل جو . . لا أريد الزواج .

ــ لِمَ ياليلى يا حبيبتى ؟ . إنك لم تعودى بعد طفلة ؟

ــ ولماذا أتزوج وأنا أشعر بمنتهى السعادة فى حياتى هذه . . إن لدىّ ما أريد . . وأبى وأمى لا يبخلان علىّ بشىء وهما يذهبان بى إلى السينما وقتما أشاء وما من شىء أطلبه إلا

ويحضرانه لى . . ألا تعلم أنهما سيبتاعان لى دراجة . . بمجرد عودتى إلى مصر ؟

سأتعلم ركوبها . وسأعلم نادية . . وإن لم تتعلم سأحملها ورائى على المقعد الخلفى وسأزوركم بها . . هل تجيد ركوب الدراجات يا أنكل جو ؟ .

وأجبتها بزفرة حارة . . ونفخة مليئة باليأس ونظرت إليها شزراً وأنا أضغط على أسنانى .

وسألتنى فى سذاجة وبراءة :

ـــ ماذا أغضبك ياأنكل جو ؟ ! ألا تعرف ركوب الدراجة ؟ . . إنى أستطيع أن أعلمك بعد أن أتعلم أنا .

ولم أجد هنا فائدة من المناقشة .

ماذا أقول لهذه الحمقاء الصغيرة . . وقد انتهت بها محاضرتى القيمة عن طبيعة أوضاع الحياة وفوائد الزوجية . . و . . و . . إلخ . إلى أن تعرض علىّ أن تعلمنى ركوب الدراجات !

وسحبتها من يدها وعدنا أدراجنا . . وهى مازالت تحدثنى عن الدراجة التى سيحضرها لها أبوها .

وخجلت بالطبع أن أعرض عليهم نتيجة محاولتى . .

وصممت على ألا أيأس . . وعلى أن أحاول مرة ثانية .

أجل . . لقد اقتنعت بخطأ الطريقة التى اتبعتها ، وعزمت على أن أحاول بطريقة أخرى .. كان من الحمق أن أحاول النجاح بسرعة فأتبع الطريق المباشر القصير . . بدل أن أتبع الطريق الطويل غير المباشر . . الذى يحتاج إلى أناة وجد وروية . . ، والذى لا تبدو نتيجته جلية واضحة . . ولكنها ستأتى مع الزمن .

لقد فشلت طريقة الإقناع بالمحاضرات . . فعلىّ أن أتبع طريقة الإقناع العملى .

وفى اليوم التالى صممت على أن أسألها الخروج معى فى نزهة مبكرة . . ولم أكن فى حاجة إلى التعلل بعش العصافير والبيض الملون . . فقد عرضت الخروج من تلقاء نفسها قائلة إنها استمتعت بنزهة الأمس .

وخرجنا فى الفجر نضرب وجدنا فى الجبل . . ولم أحاول قط أن أحاضرها . . أو أن أرفعها إلى مستوى التفكير والتبصر . . بل رحت أعدو وراءها وتعدو ورائى وعدنا فى النهاية وبى عدد من الخدوش والجروح التى أصابتنى نتيجة تسلق إحدى الأشجار لأحضر لها بعض الزهور .

واستمرت نزهاتنا يوماً بعد يوم . . وفى كل يوم يقل العدو واللعب . . ويزداد الهدوء والتأمل والتمعن .

لم أحاول أن أفعل شيئاً .. ولكن النسائم الرطبة الخفاقة والشمس المتثائبة وراء الأفق .. والورق الهتوف والبلابل الصادحة .. والأوراق الخضر تترنح وتتمايل على سفح الجبل قد فعلت شيئاً كثيراً . . أكثر مما أتوقع . . ومما أحتمل .

لقد بدأت الصبية الطائشة التافهة . . ذات الطيارة ، والزمارة والدراجة . . تتمهل فى سيرها وتكف عن عدوها . وأضحت تتوقف بين آونة وأخرى لتشير بإصبعها إلى هنا أو هناك ، ثم تهتف فى لهجة لينة وصوت حنون :

ــ أترى هذا الغصن المحمل بالزهر ؟! أنظر كيف يحركه النسيم . . إن القليل من الناس هم الذين يفطنون إلى جمال الطبيعة .

ــ نعم :

ــ أرأيت أجمل من شروق الشمس يا أنكل جو ؟

أجل .. لقد تبدل حديثها إلى « أنكل جو » من حديث عن العرائس والدراجات إلى حديث ملىء باستيعاب جمال الكون وفتنة الطبيعة . . وخفتت صرخاتها الجوفاء الضاحكة

فأضحت همسات حنونة أشبه بالزفرات . . و « أنكل جو » بين هدوئها وتأملها وحديثها وهمسها ، يرقب التطور حائراً وجلا .

لقد كنت أستطيع أن أجزم من ذلك الهدوء أنى قد كسبت الرهان . . أو على الأقل أوشك أن أكسبه .

إن الفتاة قد تبدلت وخرجت عن سربال الطفولة . . وكسرت البيضة التى كانت تضمها وتحجب عنها كل ما يتفتح عليه ذهن الفتاة وقلبها فى هذه السن وكشف لها ما يجب أن تهفو إليه روحها وتصبو إليه نفسها .

كان هدوء الفتاة وسكينة قلبها . . بشائر انتصارى .

ولكنى كنت أوجس خيفة . . خشية أن يكون هدوءاً ينبىء عن عاصفة أو سكينة تستبق ثورة جامحة لا يعلم إلا الله مداها .

كنت أخشى الفتاة .

وشر من هذا . . كنت أخشى نفسى .

كنت أخشى على كلينا من الآخر .

وبينت الأيام أنى كنت من خشيتى على حق .

أذاك أمر غريب ؟ !

قد يبدو كذلك . . ولكن لو حلل كلانا تحليلا صادقاً لبدا الأمر غير عجيب .

ولو كنت أكثر حكمة وتبصراً لما زججت بنفسى فى هذا المأزق . . ولما نسيت نفسى فحملتها ما لا تحتمل من الثقة .

كيف كانت ليلى الصغيرة ؟ ! وكيف كنت ؟

كيف كانت التجربة . . وكيف واجهتها ؟

وسط خمـــائل الجبل ، وبين الورق الهاتفة . . نسير متجاورين فى كل فجر . . فإذا ماجلسنا شردت الصغيرة فى الأفق البعيد ومدت يدها فى صمت تتلمس يدى . . فتعانق أصابعها أصابعى وتلاصق كتفها كتفى . . وتظل شاردة لا تنبس ببنت شفة .

فإذا ماهممت بسحب يدى ضغطت عليها مستبقية . . وإذا هممت بالنهوض نظرت إلىّ نظرة استعطاف ثم سألتنى :

ــ أتضايقت سريعاً ؟ ! أما نجلس هنيهة أخرى ؟ إن الوقت ما زال مبكراً ؟

وكنت لا أملك إلا الجلوس واستبقاء يدها فى يدى .

وهكذا كنا نجلس . . صمت فى صمت . . ولا شىء سوى الصمت المطبق والأصابع المتعانقة والأكف الضاغطة . وكنت أشعر أنه يجب أن أوقف هذه النزهات . . وأن

أكف عن هذه الخلوات رغم أنه لم يشبها قط شيء ظاهر .

أجل . . كنت فى باطنى أحس أن ما لا يجب أن يحدث يوشك أن يحدث إن لم يكن حادثاً بالفعل . . إن الظاهر صامت بريء . . ولكن الباطن صاخب والحشا تضج .

كان يجب أن أوقف كل هذا . . وأن أضع له حداً . . ولكنى كنت أفزع من أن أخدش مشاعرها . . أو أسبب لها ضيقاً أو حزنا .

وكنت أنا نفسى — رغم كل مقاومة — قريراً بالجلسة الصامتة . . والأكف المتشابكة .

لقد انتزعتنى الصغيرة . . من كبرى وتجاربى وعقلى . . كما انتزعتها من طفولتها وتفاهتها . . ولعبها . . لقد انتزع كلانا صاحبه مما كان فيه من الركود . . والتقينا فى منتصف الطريق . . بمشاعر مستعرة . . وأحاسيس متأججة .

ولقد كبحت جماح نفسى جيداً .. وبذلت المستحيل حتى لا أنسى نفسى وموضعى .. ولا أندفع وراء القلب الأحمق الخفاق .. فأقدم على أجن حب يمكن أن يقدم عليه إنسان .. حب لا يمكن بأية حال أن ينتهى إلى نتيجة معقولة .

ولا أنكر أنى أفلحت . . إلى أقصى حد . . وأنى لم أكن أفعل سوى الجلوس بجوارها والشرود وترك يدها فى كفى

مسترقاً البصر من آن لآخر إلى جانب وجهها الحلو ، وأنفها الدقيق وخصلة شعرها المهتزة على جبينها ثم أحول بصرى سريعاً عندما أشعر أنها قد أحست بنظراتى وبدأت تحول إلىّ عينيها . . كنت أتجنب دائماً التقاء العيون .

لقد أفلحت فى هذا .. حتى جلسنا ذات فجر كما تعوّدنا أن نجلس وأحسست بيدها تزداد ضغطاً على يدى كأنها كانت تقول لى شيئاً . . كنت أفهمه جيداً .

وأخذت أرقب جانب وجهها والخصلة المهتزة على جبينها .. حتى وجدتها تلتفت إلىّ .. ورأيتها تضغط بأسنانها على شفتيها السفلى كأنها تقاوم فى باطنها ألماً شديداً .

وعندما التقت أبصارنا اندفعت فى بكاء شديد .

ولم أملك إلا أن أضمها إلىّ وأخفى وجهها فى صدرى وأخفى وجهى فى شعرها .

وظللنا على ذلك حتى كفت عن البكاء ثم عدنا أدراجنا وكان من الجنون أن نستمر على ذلك . . فما أظن نفسينا كانتا تستطيعان أن تحتملا أكثر .

وكان علىّ بعد ذلك أن أفعل شيئاً . . فانتهزت فرصة ذهابها هى وعائلتها إلى دعوة فى صوفر ، وحزمت أمتعتى وعدت وعائلتى إلى القاهرة فى أول طائرة .

لقد عدت وأنا أشبه بالهارب المذعور . . الذى أطلق للريح ساقيه . . فراراً من خطر داهم .

أترى كنت فى فرارى جباناً ؟ !

كنته أو لم أكنه لقد كان هذا هو الطريق الوحيد لوضع نهاية للأمر .

لقد كان علىّ أن أحتمل ألم الفرقة مهما كان . . من أجلها . . ومن أجل نفسى .

لقد تركتها بلا وداع . . فشر مافى الفراق وداعه .

لقد غادرتها بلا إنذار . . إلا من رسالة قصيرة . . وضعتها تحت حجر حيث تعوّدنا أن نجلس وحيث كنت واثقاً أنها وحدها . . التى تستطيع أن تعثر عليها .

ومازلت أذكر ماكتبته وأحفظه عن ظهر قلب :

« أشعر ياليلى أننا قد وصلنا إلى حيث يجب أن نفترق إن لى سبيلى ولك سبيلك .

ولقد أشركتنا الأقدار الهوجاء برهة فى سبيل واحد وكان ذلك منها تجربة قاسية مريرة .

فقد كان من المستحيل أن نستمر فى السبيل المشترك أو يجذب أحدنا الآخر إلى سبيله .

ولذلك فقد آثرت أن أتركك ملتاعاً محزوناً . .

بلاعزاء عن فرقتك .. سوى تلك المتعة التى جنيناها من لحظات سيرنا فى الطريق المشترك .

لقد بدأت المسألة بيننا بسبب رهان . . فلقد راهنت أباك أنى سأخرجك من طفولتك وسأجعلك تقبلين خطيبك وأرجو ألا يخذلك قولى .. وأن يعزيك عنه .. إننى ـ بكل حمق ـ خرجت من كبرى وحدت عن غرضى وأحببتك فعلا .

أرجو أن تساعدينى على كسب الرهان . . وأن تقبلى خطيبك . . وتسلكى سبيلك الخاص بك . . فإن هذا سيكون لى خير عزاء .

ليسر كل منا فى سبيله .. ولنجعل من حبنا ذكرى حلوة تعيننا على تحمل مشاق الحياة .. وتسعدنا عندما تطبق علينا همومنا .

أجل لنجعل حبنا بارقة نلتفت إليها كلما خضنا ظلمات الحياة .

أليس هذا خيراً من أن نجعله ناراً تحرق قلوبنا وتدمر كياننا ؟

مزقى رسالتى تلك . . حتى لا يبقى بيننا إلا مايستتر فى القلوب .

وإذا كنت تنوين أن تحققى رجائى .. فخذى الرهان من أبيك واجعليه هديتى فى عرسك » .

ولم ألقها بعد ذلك إلا وفى يدها طفلها ، وأقبلت علىّ تشد على يدى فى شوق وتقول ضاحكة :

ـــ كيف حالك ، ياأنكل جو » ؟هذاهو ابنى .. «جو» الصغير .

لِمَ لم تسأل عنى ؟ ! لقد جعلتك تكسب الرهان ولكنى لم أمزق الرسالة . . لأنى جعلتها كما قلت فيها :

« ذكرى حلوة . . تعيننا على تحمل مشاق الحياة . . وتسعدنا عندما تطبق علينا الهموم » .

رجل مخدوع

آه لو علم وقتذاك مدي حقارتهن وتفاهتهن . . وآه لو يعلم أن هذا الجنس ليس أكثر من وسيلة للتسلية والترفيه .

آه لو علم هذا . . لوفر على نفسه الألم واللوعة .

ولكنه كان معذوراً . . فقد كان الحب الأول . . وكانت الصدمة الأولى .

سقى الله الحب ورعاه . . فقد أضحى له فى نفسى منزلتان : الأولى كشىء متع يملؤنى بالسعادة عندما يغمرنى كما يغمر كل إنسان . . والثانية كمورد رزق أعيش منه ككاتب قصة احترف الكتابة .

أجل . . إنى أفيد من الحب مرتين : مرة عند التمتع به كحقيقة واقعة . . ومرة عند الكتابة عنه كذكريات عابرة . ففى الأولى أفيد متعة الحب ، وفى الثانية أفيد لذة الكسب .

إنى لأعترف أننى كثيراً ما أصاب بتبلد ذهنى أشعر معه برغبة عن الكتابة . . وأحس بالقلم فى يدى ثقيلا مكسالا . . بطىء الحركة كأنه السلحفاة . . واقفاً فى مكانه وقفة شتربة . . وتمر بى الأيام وأنا مضرب عن الكتابة وقلمى معرض عنى حتى يقترب موعد القصة . . ولا تصبح المسألة مسألة « كيف » بل مسألة واجب . . لا بد من تأديته .

ويضيق بى الحال . . فألجأ إلى الحب وذكرياته أستثيرها فى نفسى . . وأوقظها من هجعتها . . وأستاقها كى تستحث القلم المضرب المعرض . . فإذا بها تفعل بى وبه فعل السحر . . وإذا بالقلم المتخاذل قد اندفع على الورق . . كأنه فرس رهان

وقبيل أن أبدأ قصتى هذه . . أحسست بذهنى ذلك التبلد والركود . . وأمسكت ببضعة صور لفتاة أعطانيها صاحب فنان علها تصلح لبعض القصص . . وأخذت أقلب فيها البصر . . ولم أكن أعرف من تكون الفتاة . . فما رأيتها من قبل . . وكل ما أعرفه عنها أنها حسناء حاول أن يتخذ منها المصور نموذجاً لفنه . . ورأيتنى أتوقف عند إحدى الصور لأمعن البصر فيها قليلا . . ورأيت الذهن يصحو من غفوته ثم يعود بى القهقرى إلى زمن ولّى . . حتى يقف أمام صورة من صور الماضى . . ما أشبهها بهذه الصورة . . الملقاة — أو المستلقية — أمامى . . لا فرق بين إحداهما والأخرى . . إلا أن الأولى من دم ولحم ، والثانية لا تعدو ظلالا على ورق . . الأولى صادفتها منذ خمسة عشر عاماً فكانت لى — فى فترة ما — كل شىء . . كانت الروح ، وكانت الحياة . . والثانية أقلبها الآن بين يدى . . فلا أجد فيها أكثر من صورة . . أتصيد بها ذكريات عابرة . . ذكريات . . هى كما قال الأستاذ الشناوى (صاحب الخطايا) :

« شيبتنى . . شيبت حتى صبايا » .

* * *

تبدأ القصة فى المدرسة الثانوية الملكية (الخديوى

اسماعيل الآن) . . منذ خمسة عشر عاماً أى فى حوالى عام ١٩٣٢ . . وقد جلس الصبية فى أحد فصول السنة الثالثة . . بينما أوشك الجرس أن يؤذن بانتهاء الحصة الأخيرة . . وبدأ الصبية قلقين متلهفين على الانطلاق من الحجرة كأنهم أسرى طال بهم الشوق إلى أوطانهم ، وقد جهزوا كتبهم ووضعوها بجوارهم على المقاعد ، حتى لا يضيعوا لحظة واحدة فى الفصل بعد أن يقرع الجرس .

قرع الجرس . . وهبت المدرسة كلها فى هرج وطنين كأنها خلية نحل . . وتكأكأ الصبية على الباب يتسابقون إلى الخروج كأن بداخل المدرسة من يسوقهم بالسياط أو كأنما ينتظرهم خارجها كنز أو وليمة . . فلا يكادون ينفذون من الباب حتى يتفرقوا شيعاً وأفواجاً ، فالبعض إلى ميدان لاظوغلى ، والبعض إلى شارع خيرت ، والبعض إلى ميدان السيدة أو المنيرة .

ودلفت ثلة صغيرة فى شارع خلف المدرسة فى تلك الجهة المعروفة باسم جنينة رشيد ، وسار الصبي بينهم وقد انزلق طربوشه على مؤخرة رأسه وأخذ يطوح بحقيبته فى يده ويقذف بقدمه كل حصاة أو حجر يصادفه ، حتى بدا طرف حذائه من فرط اصطدامه بالحجارة حائل اللون أجرب .

وتوقف الصبية أمام سور حديدى لدار فخمة ، وأخذوا يطلون من خلال السور على الحديقة الغناء . . فقد أثار إعجابهم بعض الورود المتفتحة اليانعة ، وأخذوا يتآمرون على قطفها ، وهموا فعلا بالتسلل إلى الداخل ، ولكنهم لمحوا الحارس قد أقبل ، فلم يسعهم إلا أن يولوا فراراً قانعين من الغنيمة بالإياب .

ولكن الصبي لم يقنع بالإياب ، فقد كانت بنفسه لهفة إلى الغنيمة ، إذ وجد فى الورود خير وسيلة يتقرب بها إلى تلك الصبية الفاتنة التى قطنت حديثاً فى الدور الأسفل ، وعاد الصبي إلى داره وقد أخذ يحكم وضع الخطط فى رأسه ، وكان أول ما أنبأ به أهله هو أنه سيعود إلى المدرسة لأن لديهم حفلة فى هذا المساء ، ولم يكد الظلام يخيم حتى انطلق من الدار إلى حيث الغنيمة .

واقترب من السور فلمح الحارس قابعاً فى مكانه ، فاستمر فى سيره حتى وصل إلى حجر قبالة الدار فجلس عليه يرقب غفلة من الحارس ، ولم يطل به الانتظار فقد أبصره يغادر مكانه .

ووجد الصبي الفرصة قد سنحت أخيراً ، فقفز من مكانه ودلف من الباب مسترقاً الخطا ، وأخذ يتسلل فى الحديقة

حتى وصل إلى الورود وكان القمر قدغمر المكان بضوئه ، فلم يجد صعوبة فى العثور عليها ، وأخذ يقطفها الواحدة تلو الأخرى ، حتى أحس فجأة بحركة بجواره فأصابه فزع شديد وتلفت حوله إلى مصدر الصوت ، فتصبب العرق بارداً من جبينه ، وأحس بارتباك شديد .

ويحه ! ! لقد كان هناك من يرقبه منذ أن بدأ سرقته ، لقد أبصر بوجه ساحر افتر عن ابتسامة عذبة فاتنة ، وبعينين ضاحكتين قد أخذتا ترقبانه فى لين ودعة ، وقد اضطجعت صاحبتها فوق الحشائش الخضراء متخذة من ذراعيها العاريتين متكأ تسند إليه رأسها وشعرها الفاحم .

واضطرب الصبى ، ولكن ابتسامة الفتاة أعادت إلى نفسه الطمأنينة ، فأبعد عن نفسه فكرة الفرار ، إذ كره أن يبدو أمامها بمظهر اللص الرعديد ، وأخذ يجهد رأسه فى عذر ينتحله أمامها كى يبرر به موقفه .

وأشار لها بتحية خفيفة من يده ، فنهضت متكئة على إحدى يديها وردت عليه التحية ، وتكلم هو بصوت هادىء متزن فرجاها أن تنبىء البواب بأنه قد قطف الورود التى طلبها « عبد الرحيم بك » وأنه سيحملها إليه بنفسه ، ثم أعطاها ظهره وانساب إلى الباب فى هدوء

وسكون . . ولم يكد يبتعد قليلا ويختفى عن ناظرها حتى أطلق ساقيه للريح .

وبات ليلته يحلم بذلك الوجه الباسم الذى اضطجع على أرض الحديقة والذى ضبطته صاحبته متلبساً بجريمة السرقة . واستيقظ فى الصباح فوجد الوجه مازال يشغله فى يقظته كما شغله فى نومه . . وذهب إلى المدرسة . . وتتابعت عليه الدروس . . وهو لا يفهم كلمة مما يقال . . فقد كان ذهنه شارداً فى عالم آخر .. وكانت عيناه لاتبصران سوى صورة الفتاة راقدة تبتسم له .

وانتهت الدراسة فتعمد أن يتأخر عن رفاقه . . حتى يعود وحيداً فقد كانت بنفسه لهفة إلى أن يراها مرة أخرى ولكنه لم يلمح لها شبحاً فى الحديقة أو فى الدار .

ومرت الأيام وصورة الفتاة قد شغلته عن كل شىء .. حتى عن تقديم الورود إلى صاحبته التى قطفها من أجلها . . وحاول جهده أن يبصرها مرة ثانية . . ولكن الفشل كان نصيبه حتى بات يخشى أن تكون الفتاة طيفاً صورته له الأوهام فى تلك الليلة .

وأخيراً . . رآها . . على غير ترقب منه أو انتظار . . وأحس بارتباك شديد . . وحاول أن يستعيد لنفسه تلك

الأحاديث التى كان يعدها ليلقيها إليها فى أول لقاء .. ولكن كل شىء كان قد تطاير من رأسه .. وأحس بأنفاسه تتلاحق وخيل إليه أنه قد بات يسمع دقات قلبه .

وأخذت الفتاة فى الاقتراب منه وقد تأبطت ذراع صديقة لها .. وحاول هو أن يقول شيئاً .. ولكنه لم يتذكر أى شىء .. لقد كان عاجزاً عن التفكير .. عاجزاً عن الكلام .. حتى لكأنه أمام لجنة امتحان الشفوى .

وأبصرته الفتاة فبدا عليها أنها قد تذكرته ، فقد نظرت إليه فى شىء من الدهشة ، ثم وجهت الحديث إلى صاحبتها ضاحكة .. واستطاع أن يسمع من حديثها كلمتين هما : « حرامى الورد » ! ! .

إذاً لقد اكتشفت الفتاة حقيقته ! ! .

ولم يشعر بخجل من تلك الكلمة .. بل على النقيض لقد أحس بفرحة شديدة .. فقد تبين أنها على الأقل مازالت تذكره وكان لسان حاله يكاد يقول :

لئن ساءنى أن نلتنى بمذمة

فقد سرنى أنى خطرت ببالك

لقد عاد الفتى إلى داره وهو يحس بسعادة لا توصف . لقد عرفته الفتاة ، وكان ذلك أكثر مما يتوقع ويتمنى .

ولاحظ أهل الفتى ورفاقه ذلك التبدل الذى طرأ عليه وذلك التحول العجيب الذى بدا فى مسلكه وتصرفاته . . فقد انقلب فجأة من صبى عابث إلى فتى رزين متئد . . وكان طربوشه وحذاؤه أول ما تناوله ذلك التبدل والتغيير . . أما الطربوش فقد أقلع عن الانزلاق على مؤخرة رأسه . . وبدأ يستقر فى ميل شديد على أحد حاجبيه . . وأما الحذاء فقد كف تماماً عن قذف الحصى والحجارة وعاد إليه لونه ولمعانه وأحس بأن صاحبه قد أضحى « بنى آدم » ، وليس عفريتاً من الجن أو شيطاناً من الشياطين .

لقد ذاق الصبى — أو على الأصح الفتى — أول رشفة من رشفات الحب . . وهبت عليه أول نسمة من نسماته . . ولا أظن أن هناك أمراً إلا ويذكر نفسه فى تلك المرحلة التى أخذ يجتازها الفتى . . وأعنى بها مرحلة الحب الأول ، بينما لم يزل بعد فى طور النضج . . حين ينظر إليه الناس فى سخرية واستهزاء إذ لا يرون فيه غير غر حدث . . وطفل ساذج . . ويبادلهم هو نفس النظرة . . فهو يرى فيهم حمقى لا يستطيعون أن يفهموه . . لأن مداركهم أعجز من أن تصل إلى ذلك الشعور الذى يحس به ، وأبصارهم أقصر من أن تبصر ذلك العالم المضىء الذى يحيط

به ، وهكذا يرى الإنسان نفسه بمعزل عن الناس . . هو لا يفهمهم وهم لا يفهمونه . . هو فى واديه يهيم وهم فى واديهم يهيمون .

ومن العبث أن أحاول وصف أحوال الفتى فى حبه الأول ، أو تحليل مشاعره وإحساساته . . أو أن أسرد محاولاته مع الفتاة لكى يفوز منها بكلمة أو بنظرة ، لا سيما أن الفتى — رغم تلك الجسارة والجرأة التى كان يظهر بها بين رفاقه — كان فى حبه من نوع انطوائى ، يحيط نفسه بسياج منيع من الخجل والحياء .

ولكنى أستطيع أن أعطى صورة واضحة للقارىء إذا ما قلت أن الفتى قد مرت به سنتان منذ أن بدأ حبه للفتاة ، وهو يحوم حول الدار ، عله يلمحها فى نافذة أو فى شرفة أو يجدها خارجة فيتبعها من بعد كالكلب الأمين ، ثم يعود إلى داره ، فينهمك فى قراءة قصص الغرام كمجدولين وأمثالها . ثم يأخذ فى كتابة رسائل الحب التى يسكب فيها عصارة ذهنه وقلبه ، وهو حائر الفكر لا يستطيع أن يعرف موقفه عند صاحبته ، ولا يدرى إن كانت تحبه أو لا تحبه . . لأن أحوالها معه غير مفهومة ، وتصرفاتها معه متناقضة متباينة ، فهى قلب حول . . تبتسم مرة وتكفهر أحياناً . . وهو

لا يستطيع أن يسألها هل تحبه ، أو هل هي تفهم معنى الحب ، لأنه لا يدرى كيف السبيل إليها ، فلا يجد خيراً من الورق ملجأ ينفس عنه كربته . . ويقذف فيه بما يجيش به فؤاده .

وإليكم بعض ما كان يكتبه الفتى وهو فى غمرة حبه . . ففى كلماته خير تصوير لنفسه :

« ليتنى أستطيع أن أنفذ إلى رأسك أو إلى قلبك . . ليتنى أستطيع أن أبدد ظلمات الشك والحيرة التى تكتنفنى من كل جانب . . ليتنى أعرف فقط أنك تحبيننى . . أنا لا أريد أكثر من ذلك . . أريد أن أشعر بلذة اليقين والاستقرار . . آه لو أعرف أنك تحبيننى ! ! .

ولكن هل تعرفين أنت ماهو الحب ؟ ! من يدرى ربما كنت لا تعرفينه . . وربما كنت تحبيننى دون أن تعرفى أن هذا هو الحب . . دعينى أشرح لك الحب كما أحس به . . لا كما قرأته أو سمعت عنه . . وسأشرحه لك فى أبسط الألفاظ وبأقصر الطرق .

معنى أنى أحبك . . هو أن رأسى ملىء بك . . حتى لكأن ذلك الشىء الكامن فيه ليس عقلا كبقية العقول . . بل هو عقل ممزوج بك . . لايستطيع أن يفكر فى غيرك . . أما عيناى فكأنى بصورتك قد التصقت بهما . . حتى بت

لا أبصر الحياة إلا من خلالك . . أما القلب . . فأغلب الظن أنك قد امتزجت بالدماء التى تجرى فى أوردته وشرايينه . . فلو توقفت عن السريان فيه لكف عن نبضه وتعطل عن حركته .

لا تقولى إن قولى مبالغة عشاق . . أو مجرد إنشاء . . أو محاولة فى الكتابة والأدب . . لأن ذلك القول هو حديثى إلى نفسى ، وليس أصدق من حديث النفس إلى النفس .

إنى لأبصرك فأتمنى ألا يتحرك الوقت ، وأتمنى لو أصاب الحياة جمود وركود ، حتى تظلين أمام عينى إلى مالا نهاية ، وقد يزداد بى الطمع فى بعض الأحيان فأتمنى لو استطعت أن أحتوى يدك بين يدى ، وأن أحس برأسك يستند إلى صدرى ، ثم نغمض أعيننا عن كل ما فى الحياة ، ونظل كذلك حتى ينتهى العمر ، أو حتى تحين الساعة » .

هذا بعض ما كان يكتبه الفتى ، مما لو جمع لكان مجلدات ضخمة فى الهوى والهيام .

وأخيراً وبعد مضى عامين طويلين ، وبعد طول كتابة

وصبابة . . حدثت المعجزة التى كان يتلهف عليها الفتى . . وتم اللقاء .

لقد عوّض الله انتظاره ، وجزى صبره خيراً ، كل الخير ، ففى ذات مساء رآها فى الحديقة ، وكان المكان خالياً إلا منه ومنها ، وابتسمت له وأشارت إليه بالدخول ، فتسلل كما تسلل منذ عامين ، لا ليسرق الورود هذه المرة ، وإنما ليسرق الحب .

وغادرها بعد أن أفرغ كل ما فى قلبه .. وبعد أن سرق كل ما كان يطمع فيه . . بل أكثر كثيراً . . لقد سرق منها اعترافاً بحبه . . وسرق قبلة من يدها .

ومر على الفتى يومان بعد ذلك . . شرد فيهما عن نفسه من فرط تلك السعادة التى كان يحس بها حتى حدث اللقاء الثانى . . والأخير ! ! .

الأخير لأن الفتى قد حطم فيه صنمه . . حطمه وبكى . . لا بدمع عينيه . . بل بدماء قلبه . . وعصارة روحه النضرة اليانعة .

لقد لقيها . . فحطم لقاؤها قلبه . . وندم على هذا اللقاء كما لم يندم على شىء فى حياته . . وهو الذى كان لا يتمنى شيئاً قدر لقائها .

لقيها وهو يركب فى عربة صاحب له ثرى مدلل . . سأله أن يذهب معه للقاء فتاتين تعوّد أن يقضى معهما ساعات ممتعة . . وتمنع الفتى فقد كان يحس أن لصاحبته حقاً عليه وأن فى ذهابه خيانة لعهدها . . ولكن صاحبه أقنعه أن هذا مجرد عبث لادخل له فى الحب أو الخيانة .

وسارت بهما العربة وهو شارد الذهن . . موجس خيفة من أن تراه فتاته فى موقفه الشائن . . حتى أحس بالعربة تقف ، وبالفتاتين تصعدان . . فإذا إحداهما . . هى صاحبته . . بدمها . . ولحمها ! !

وسارت العربة وجلست فتاته إلى جواره . . ملاصقة له . ومع ذلك فقد كان يحس أن بينه وبينها ما بين الأرض والسماء . . أو ما بين إبليس والرحمة . . أو كأنه يجلس إلى ميت بينه وبينه ما بين الآخرة والأولى .

ولم ينبس الفتى ببنت شفة . . فقد كان يحس بنفسه كأنه شبح بين أطلال . . أو حطام بين أنقاض . . ولم تكد تقف فى أول مرور حتى فتح الباب ببطء وتسلل من العربة واختفى بين السابلة .

وعاد إلى داره . . وبنفسه ذلك الشعور المرير الذى

نحس به عند ما نعود إلى دورنا وقد وارينا التراب عزيزاً لدينا .

كم كان جزعه شديداً . . ولوعته محضة !

آه لو علم وقتذاك مدى حقارتهن وتفاهتهن . . وآه لو يعلم أن هذا الجنس ليس أكثر من وسيلة للتسلية والترفيه !!

آه لو علم هذا . . لوفر على نفسه الألم واللوعة .

ولكنه كان معذوراً . . فقد كان الحب الأول .

وكانت الصدمة الأولى .

رجل طيب

لقد وجدت الرجل الطيب الكريم اليائس .. المنهار ، الذي أزلت به الصدمة الكبرى . . ولكنه كان في حالة لا تنبيء عن طيبته ولا كرمه. لا . ولا كان هناك أثر للصدمة التي أزلتها به .

كانت تشعر بأنها تمر بتجربة عسيرة ، وأن المشاعر تصطرع فى جوفها وتصطخب ، إنها باتت أشبه بريشة فى مهب ريح هوجاء عاصفة عاتية .

ترى كيف هبت عليها الرياح فزلزلت حياتها الهادئة وعصفت بنفسها الراضية القانعة المستقرة ؟ بدأت الريح طيبة حنوناً كالنسمة الرقيقة الناعمة لا تنبىء بخطر ولا تنذر بشر . . فآمنت لها واطمأنت إليها ، وتركت نفسها تستمتع بها فى دعة واستسلام ، حتى بدأت الريح تشتد وتعصف وتجرفها فى سبيلها فإذا بها شاردة تائهة ضالة هائمة .

كانت أول تجربة تمر بها ، تجربة شاقة مرهقة ، وهى التى تعوّدت الهدوء والاستقرار منذ نعومة أظفارها ، ولم تكن تعرف عن الحياة إلا أنها موكب يسير وصورة تتكرر . . .

إنها تذكر حياتها مع أبويها عندما كانوا يقطنون فى دارهم بمصر الجديدة ، وعند ما كانوا يتمتعون بحياة هادئة هانئة لا يشوب صفوها كدر ، وكان أفق حياتها لا يكاد يتعدى البيت والمدرسة ، ومن آن لآخر سهرة فى إحدى دور السينما أو زيارة لأحد الأقارب أو الأصدقاء برفقة أبويها .

كانت سعيدة بغرفتها الصغيرة التى لا يشاركها فيها أحد ، وكانت دائمة الترتيب لدولابها الصغير الذى حوى بين جدرانه جميع ممتلكاتها من دمى قديمة وملابس وكتب . سعيدة بكل شىء .

وكانت سعيدة بأبويها الرقيقين الطيبين الحنونين اللذين لا يرفضان لها طلباً ولا يخيبان لها رجاء . سعيدة بالدار النظيفة الأنيقة والحديقة المورقة المزدهرة . . سعيدة بمدرستها التى لا تكاد تبعد عن الدار أكثر من مسيرة بضع دقائق . سعيدة برفيقاتها ومدرساتها فى المدرسة .

كانت بطبيعة خلقها ونشأتها هادئة الطبع شديدة القناعة ، فلم تحاول قط أن تتطلع إلى أكثر مما وهبه الله لها ، وأراحها هذا الهدوء وتلك القناعة وشغلتها توافه الحياة ومتعاتها البسيطة السهلة عن التطلع إلى مطالب المشاعر المرهفة ورغبات النفس الحساسة .

علمتها أمها أن على المرأة ألا تحب إلا بعد أن تتزوج ، فكفت نفسها مئونة التشوق والتشوف ، وكفت نفسها شر الرجات القلبية والزلازل العاطفية ، وباتت تنتظر فى هدوء وفى غير تعجل ولا قلق ، وتنعم بحياتها المدرسية

والمنزلية حتى يحين اليوم الموعود ، ويتقدم إليها الزوج الذى يجب أن تحبه .

ولم يتأخر اليوم كثيراً ، ولم يطل بها الانتظار حتى تقدم الزوج .

إنها تذكره جيداً . . فى يوم من أيام الخريف اللطيفة الجو ، ولم يكن قد مضى سوى بضعة أيام على بداية العام الدراسى ، وقد عادت من المدرسة وقذفت بحقيبتها على أحد المقاعد ثم استلقت بملابسها على الفراش فى تكاسل واسترخاء ، عندما أقبلت أمها تستنهضها وتسألها أن ترتدى ثيابها بسرعة استعداداً لاستقبال بعض الضيوف .

وبدلت ملابسها وأخذت تعد حجرة الصالون لاستقبال الضيوف فوضعت الزهور فى الزهريات وأعدت المرطبات ، ولم تكد تنتهى من إعدادها حتى أقبل الزائرون وكانوا عائلة صديقة ، بصحبتهم رجل غريب .

وكان الرجل الغريب هو طالب الزواج ، أو الزوج المنتظر .

أجل . . لقد أدركت حقيقته بوحى إحساسها !

إن أمها لم تفصح عن شىء ولكن إلحاحها فى أن تعتنى

بهندامها وفى أن ترتدى حليها كان إلحاحاً يبعث على الشك .

والرجل الغريب نفسه ، ونظراته المسترقة من آن لآخر جعلها تجزم فى نفسها أن فى الأمر شيئاً .

ومضت بضعة أيام .. ثم وضحت الحقيقة ، وسألتها أمها عن رأيها فيه ، لأنه قد تقدم لخطبتها .

وعرضت أمامها مؤهلاته ، فكانت جمة .

كان مدرساً فى الجامعة يحمل شهادة الدكتوراه ، وكان شاباً لا يتجاوز الخامسة والثلاثين ذو مستقبل باهر ، كريم المنبت ، طيب العائلة ، له من الأملاك ـ غير مرتبه ـ ما يجعله فى بسطة من العيش .

وهكذا لم تكن به أية علة ولا هنة من حيث الموضوع بل كان يعتبر زوجاً نموذجياً .

أما من حيث الشكل ، فقد كان عادياً .

لم يكن قبيحاً ولا مشوهاً ، ولم تكن العين تستطيع أن تلمح به شيئاً مميزاً ، جميلا كان أم قبيحاً . بل كان ممثلا للشكل العادى الذى يمكن أن تبصره فى آلاف الموظفين والمدرسين والكتبة والتجار ، والمصريين عامة !

كان أميل إلى القصر والامتلاء ، ولكنه لم يكن قصراً

معيباً ولا امتلاء مشوهاً ، وكان يضع على عينيه منظاراً ، ولم يكن هذا بالشيء الغريب ، فثلاثة أرباع من فى مثل سنه ومركزه يضعون على أعينهم منظاراً .

كان الرجل مقبولا شكلا وموضوعاً .

ولم يكن هناك مبرر لأن تقول — حتى فيما بينها وبين نفسها — لا .

حقيقة أنه لم يكن هناك أية صلة ولا شبه بينه وبين ذلك المخلوق الكائن فى أفق أحلامها ، ذلك المخلوق الذى تجسده لها قصص الهوى وأحلام الدجى .

وحقيقة أنه لم يكن جميلا ، فارع الطول ، مشوق القوام كأبطال الشاشة البيضاء .

ولكنها لم تكن من الغباء بحيث تتصور أن هذا الشيء كائن فى الحقائق ، وأن عليها أن تنتظر حتى يقبل ذلك المخلوق من أفق الأحلام !

كانت قناعتها ، وهدوء طبعها ، وحسن تربيتها ، تجعلها تؤمن بالواقع ، وتدرك بسهولة أن هذا الرجل المتقدم إليها يمكن أن يكون زوجاً صالحاً محترماً ، وأنها يجب أن تقبله حامدة قريرة ، وأن تشكر الله على نعمائه وفضله .

وقالت نعم . . لأنها لم تستطع أن تقول : لا ، فما كانت تجد لها مبرراً ، وما كانت من الجنون بحيث تقول إنها كانت تفضل أن يكون أطول قامة ، وأوسم وجهاً ، وأرشق قداً .

وخيراً فعلت . . فلقد أثبتت لها الأيام التى مرت بعد ذلك أن القدر قد أكرمها ، وأنها لم تخطىء قط بقبول الرجل زوجاً .

كان رجلا رقيقاً مهذباً ، رضى الخلق ، هادىء الطبع ، ولم يكن هذا الخلق الرضى بالشىء المفتعل المتصنع الذى يتكلفه الرجال فى أيام الخطبة ، والذى سرعان ما يتبدد عندما يصبحون أزواجاً . فينقلب هدوءهم غضباً ، ورقتهم فظاظة ولينهم غلظة .

وبدأ حياتهما الزوجية ، وانتقلت إلى بيتها بالدقى مكرمة معززة ، وأقبل عليها زوجها إقبال محب عطوف ، وأحاطها بعنايته المفرطة . . مدركاً أنها شىء ثمين يستحق الرعاية والعناية .

ولقد كانت كذلك فعلا ، إذ هيأت له زوجة مثالية . . ولم يكن جمالها وثقافتها ليمنعاها من أن تكون سيدة بيت

ومن أن تقوم بالطهى والنظافة وأن ترعى شئون زوجها تماماً كما كانت تفعل أمها ببيتها وبابيها .

وهكذا سارت بها الحياة الهوينا ، جاعلة من كليهما .. هى وزوجها .. نموذجاً لزوجين سعيدين راضيين قانعين .

حتى بدأت الريح تهب .

وكان مصدرها ذلك النادى الرياضى الذى اشتركا فيه .

كانا سعيدين بالاشتراك به فى أول الأمر ، فقد كان خير مكان يمكن أن يقضيا فيه وقتهما برفقة ثلة من زملائه وزوجاتهم .

ولم يكن النادى يبعد عن البيت كثيراً ، وكانت حديقته المتسعة المترامية الأطراف وشرفته المشمسة تعوضهما خيراً عن شقتهما البحرية التى لا تدخلها الشمس .

ولقد بدأ ذهابهما إلى النادى فى أول اشتراكهما معاً ، فقد كان يصطحبها برفقته بعد الظهر فتجلس هى للتسلى بالحديث مع بعض الصديقات أو بعمل التريكو إن لم تلق إحداهن ، ويأخذ هو فى لعب التنس ، وبعد الانتهاء من اللعب يجلسان معاً لتناول الشاى وقضاء السهرة فى السمر مع الأصدقاء أو يذهبان إلى إحدى دور السينما .

هكذا كان برنامجهما اليومى .. حتى أنشأ لنفسه مكتباً للعمل الحر ، فشغل وقته معظم أيام الأسبوع بعد الظهر .

وكان يكره أن يتركها وحيدة طول اليوم ، فوجد أن خير طريقة لتسليتها هى اصطحابها إلى النادى وتركها فيه حتى يعود إليها بعد الانتهاء من العمل .

وبدأت أيام الشتاء الأولى تمر دافئة ممتعة ، وبدأت هى معرفتها به .

كان زميلا لزوجها ، سبق أن جلس فى شلتهما بضع مرات من قبل . . ولكن معرفتها به كانت معرفة سطحية غير وثيقة .

ولقيها وحدها فى أول يوم فحياها فى أدب واستأذنها فى الجلوس فأذنت له .. ثم سألها لِمَ لا تتسلى بلعب التنس ، فأنبأته أنها لم تلعبه من قبل . . فقال لها إنها يجب أن تحاول لعبه وعرض عليها أن يقوم بتدريبها .

وكانت تعلم أنه أحد أبطال التنس المعروفين .. ولكنها اعتذرت فقد خشيت أن يضايق هذا زوجها .

وعندما عاد زوجها عند انتهائه من العمل . . جلس الثلاثة يتناولون الشاى . . وقال صاحبنا مازحاً :

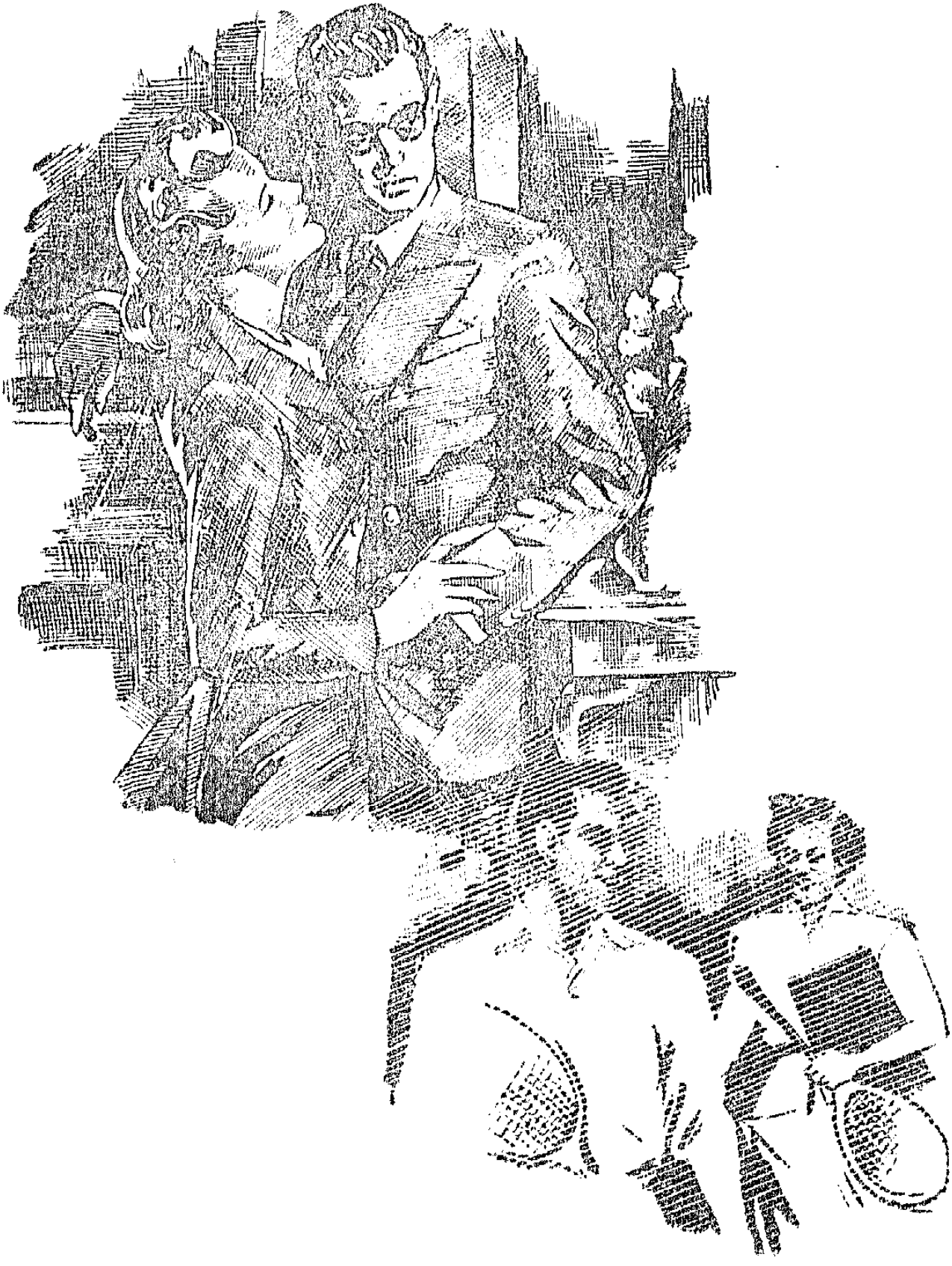

ـ يامحمود بك .. لقد عرضت على ليلى هانم أن أعلمها التنس مجاناً .. فرفضت .

وأجاب محمود بك :

ـ إنها مخلوقة مكسالة .. من الذى يرفض أن يعلمه «على عزت» بطل التنس ؟ لا .. لا .. يجب أن تتعلمى «ياليلى» بدل الجلوس هكذا تشتغلين بالتريكو كالعجائز .. إنى أريدك أن تكونى شريكة لى عندما تبدأ المباريات الزوجية .

وفى اليوم التالى بدأت التدريب .

وبدأت تستمتع بالريح الطيبة الحنون تهب كالأنفاس الناعمة الرقيقة .. لا تنبىء بخطر ولا تنذر بشر .

كانت تستمتع باللعب وبالصحبة ، وبالشمس الدافئة ، وباليوم الجميل ، ولم تحاول أن تمنع نفسها من الاستمتاع .. فما كانت تدرك أن وراء الريح الهادئة زوبعة عاصفة عاتية ، وأن وراء الاستمتاع اندفاع واقتلاع .

إن شر ما فى هذه التجارب أنها تبدأ هادئة رقيقة ، وأنها تتسلل إلى النفس تسلل النوم إلى الجفون ، لذيذة ممتعة .. غلابة مسيطرة .. لا يملك لها الإنسان دفعاً ، ولا لسلطانها رداً .

كانت تستمتع باللعب وبالصحبة ، سليمة النية ، طيبة القصد ، ولم يخطر ببالها أنها كانت تندفع إلى مغامرة ، وتساق إلى شر تجربة يمكن أن تساق إليها امرأة متزوجة .

ولقد قلت إنها متينة الخلق ، حسنة التربية ، شديدة القناعة ، وأنها . . وأنها . . من كل محمود الصفات التى يمكن أن تخطر على بال .

ولكن هل تستطيع كل هذه الصفات الطيبة أن تصمد أمام التجربة إذا ما استطار شرها ، واستشرى خطرها ، واستفحل داؤها ؟

لا تقولوا . . نعم .

لا تكونوا حمقى . . فتلقوا القول على عواهنه .

متزوجة أو غير متزوجة ، طيبة أم فاسدة ، سعيدة فى بيتها أم غير سعيدة ، إن هذه التجارب إذا ما وقعت أودت بالطيب والخبيث والشقى والسعيد ، وجرفت فى طريقها كل شىء ، غير عابئة بتقاليد أو أصول أو أوضاع .

إن التجربة تبدأ سهلة هينة لا تنبىء بشر حتى يحاول الإنسان تجنب شرها ، ولا تنذر بخطر حتى يحاول أن ينجو من خطرها ، فإذا ما حل الشر ووقع الخطر . . جرف

أمامه كل مقاومة وسحق كل محاولة للنجاة .

لقد أمتعتها اللعبة والصحبة .. لعبة التنس، وصحبة المدرب وزاد الاستمتاع حتى خرجت المسألة عن مجرد الاستمتاع . وأصبح الأمر شيئاً حيوياً ضرورياً ، وانقلبت لعبة التنس إلى اللعبة الشائكة الهوجاء المسماة بالحب ، ولم يعد المدرب شريك اللعبة فحسب ، بل شريك الروح وأنس الحياة .

وبدأت تحس بقسوة التجربة وبخطورة الأمر وحيويته . وبأن الريح الهادئة قد اشتدت وباتت رياح هوج لا تبقى ولا تذر ! .

وبدأ النضال الخفى بين الضمير والرغبة . . بين القلب والعقل .. وزاد النضال قسوة وعنفاً طبيعتها الرزينة وعقلها الهادىء المتزن . . فقد كان يمكن للتجربة أن تمر بسهولة لو أنها جبلت على غير ذلك الخلق الطيب والتربية القويمة .. ولو أنها كانت مستهترة مخادعة نزقة طائشة .

وحاولت المقاومة فى الظاهر وفى الباطن ، أما محاولات الظاهر فلم تجدها نفعاً . . فقد حاولت سدى أن تقلع عن الذهاب إلى النادى ، وحاولت التعلل أمام زوجها بشتى الأعذار ولكنه كان يصر على أن تذهب .

أما محاولات الباطن . . فقد ذهبت كلها أدراج الرياح .

كان القلب جامحاً بعد أن طال به السكون والركود . . وكان عسيراً عليه مقاومة أول هزة تفيقه من غفوته ، وتوقظه من سباته .. وكان عسيراً عليه أن يرى صنو النفس الذى طالت وقفته فى أفق الأحلام فيعرض عنه وقد أقبل عليه وأضحى حقيقة واقعة .

أجل . . لقد كانت الكارثة فى أن فتى الأحلام قد أقبل متأخراً بعد أن ارتبطت بسواه وشدت إلى غيره .

وأخيراً صممت على أن تضع حداً لذلك النضال ، وأن تتخذ إجراءاً حاسماً .

إنها تحترم زوجها وتجله ، وتربأ بنفسها أن تلوث عرضه وهى تكره الخيانة والخديعة ، ولذلك فيجب أن تختار بين أحدهما . . إما مالك الجسد . . وإما مالك القلب . . إما الزوج . . وإما الحبيب .

وغادرت الدار ذات صباح بعد أن أنبأت زوجها أنها ستقضى اليوم بطوله عند أمها لأن بها وعكة . . وذهبت إلى صاحبها لتنبئه علام استقر رأيها وأيهما ستختار . . هو أو زوجها .

والتقت به فى داره حيث كان ينتظرها فى لهفة .. فأنبأته أنها قد اختارته هو ، وأنها ستنبىء زوجها بصراحة بجلية

الأمر وتسأله الطلاق .. وغادرته عائدة إلى دارها .. وطال بها الانتظار دون أن يعود زوجها ، فدفعها القلق إلى الذهاب إلى مكتبه ، وكانت تعلم أية صدمة قاسية توشك أن توقعها به ، ولكنها كانت تعلم أن عملها هذا خير بكثير من الخديعة والخيانة .

ووصلت إلى المكتب ودقت الجرس وبعد لحظة كان زوجها يقف أمامها فى دهش وذهول .

كانت أول مرة تزوره فى مكتبه ، وخشى أن يكون قد أصاب أمها مكروه . . فسألها منزعجاً :

ـ أأصاب والدتك شيء ؟ .

ـ لا .

ـ إذن ما بالك مضطربة هكذا ؟ .

ـ أريد أن أفضى إليك بشيء .

ـ الآن ! .

ـ أجل الآن .

ـ ألا يمكن تأجيله حتى نعود إلى البيت .

ـ من الأفضل أن تنهيه الآن .

ـ أهو من الأهمية بمكان ؟

ـ نعم .

وقادها إلى حجرة المكتب وأغلق الباب وما زالت علائم الدهشة مرتسمة على وجهه ، ولم تكد تستقر على مقعدها حتى صاح متسائلا :

ـ حدثيني عما بك .

وبصوت خافت حدثته ، عما جاءت لأجله . . وألقت إليه بخبيئة نفسها .

وجلس ينصت إليها فى ذهول ، وقد اتكأ على المكتب مطرقاً برأسه فى يأس شديد .

وأخيراً كفت عن الكلام وساد الحجرة صمت عميق .

وبعد برهة قال بصوت خافت متهدج :

ـ أنت مجنونة . . طائشة .

ـ لست مجنونة ولا طائشة ، ولكنى لا أريد أن أخونك أو أخدعك لأنى أجلك وأحترمك .

ـ ألا تمنحين نفسك فرصة للتفكير ؟ .

ـ لقد فكرت كثيراً . . إنى لم أفعل ما يجعلنى أخجل حتى الآن . . ولا أريد أن أفعله أبداً .

وهز الرجل رأسه ببطء ، وقال وهو يحاول التمالك والتماسك .

ـ لك ما تشائين .

ونهضت من مقعدها وغادرت الحجرة .

وفى الطريق بدأ الضمير يثقل ضرباته ، وبدأت تحس ثقل الصدمة التى أنزلتها بالرجل الذى بذل كل ما يملك لإسعادها . . والذى وهبها البيت الهادىء والحياة المستقرة .

وتصورت حاله الذى تركته عليها وانهياره ويأسه . . فازداد بها الندم ، وتمنت لو تستطيع أن تخفف عنه بعض عبئه ، وأحست بأنها كان يجب عليها أن تضحى من أجله ، وأن تقاوم رغباتها ونزعاتها .

وبلا وعى ولا إرادة وجدت نفسها تعود القهقرى . . لتسأل زوجها المغفرة وترجوه العفو ، وتنبئه أنها قد صممت على أن تقهر قلبها ، وتطلب منه أن يساعدها على الخلاص من حبها .

وكانت واثقة أنه سيقدر وسيغفر .. فهو طيب كريم .

ومرة ثانية وقفت بباب المكتب ، ووجدت أنها لم تغلقه ورائها جيداً فقد انفتح أمام دفعتها . . ودخلت المكتب ولم تكد تخطو بضع خطوات حتى وقفت مشدوهة ذاهلة .

لقد وجدت الرجل الطيب الكريم . . البائس المنهار .. الذى أنزلت به الصدمة الكبرى .

ولكنه كان فى حالة لا تنبىء عن طيبته ولا كرمه . .
ولا كان يائساً ولا منهاراً .

لا . . ولا كان هناك أى أثر للصدمة التى أنزلتها به .

كل ما وجدته قد زاد عليه . .

هو امرأة بين أحضانه .

حقاً . . إنها كانت مجنونة .

لقد أدلت إليه باعترافها أول مرة والمرأة مختبئة فى إحدى الحجرات . لقد كان مكتبه مأوى لرفيقته .

لعنة الله عليها .

كان خير لها أن تفعل كما يفعل . . فلا تفضح نفسها . . بل تبدو أمامه كما يبدو أمامها طيباً كريماً .

يوم آثم

الحمد لله على أنه لا يعرف أوصاف الآثم الأول .. لقد كان لا بد من ذهابه . . وإلا . من يدري فقد تنبئه عجوز النحس بها وتكون الطامة الكبرى .

القطار سيره ، وأخذت ألوّح لبضعة الأصدقاء الذين حضروا لتوديعي حتى اختفوا عن ناظري وسط الزحام . وغادرت النافذة عائداً إلى مقعدي .

وكان أول ما فعلت هو أن ألقيت نظرة عجلى على رفاقي في السفر . وبؤت من النظرة بخيبة رجاء . فما رأيت بين الوجوه المرافقة التي سأكره على صحبتها ثماني ساعات متوالية وجهاً يغري بالنظر ، ويزيل وحشة السفر ، ويقصر طول الرحلة . ومع ذلك فلم أشعر بكثير أسف . أولا لأني قد تعوّدت على هذه الخيبة في كل سفر . وثانياً لأن الديوان لم يكن مزدحماً بل كل من به لا يزيدون على أربعة : أنا وثلاثة آخرون . . وهكذا اطمأننت إلى سفرة مريحة أستطيع خلالها أن أمدّ ساقيّ على المقعد المواجه وأن أستغرق في نوم عميق .

وبدأت أتصفح الجرائد والمجلات التي وضعتها بجواري حتى أحسست بالخمول يدب في جسدي فألقيتها جانباً ثم أسندت رأسي في تكاسل إلى الوراء وأغمضت عينيّ في شبه إغفاءة .

وأخذت أنصت لطرقات القطار المنتظمة التي يحدثها

فى أثناء سيره. وشرد بى الذهن فى توافه الحياة ، فاستعرضت ما فعلت فى يومى وما سأفعله فى الغد ، ثم اختلطت الأفكار فى رأسى حتى انعدمت قدرتى على التفكير ورحت فى سبات عميق .

لم تكن الساعة تزيد على الثامنة . فالقطار قد بدأ تحركه فى السابعة والنصف . ولا أظن تشاغلى بالنظر إلى رفاقى فى الديوان أو انهماكى فى قراءة الصحيفة ، قد استغرق أكثر من نصف الساعة . ومع ذلك فقد هاجمنى النعاس سريعاً من فرط ما أجهدت جسدى خلال اليوم . ولأنى لم أجد حولى ما يستحق اليقظة .

وإذا نام المرء واستيقظ فجأة فإنه لا يكاد يشعر أنه قد نام ولا يستطيع أن يقدر طول الوقت الذى استغرقه فى النوم بل يخيل إليه أنه لم ينم . وهكذا أحسست عندما استيقظت فجأة على صوت طلق نارى يدوى فى أذنى . وهببت من مقعدى فزعاً مرتاعاً لأجد الرجل الجالس بجوارى يفحص مسدساً فى يده ثم يضعه فى جيبه باطمئنان وارتياح . وأجد أحد الرجلين الجالسين فى مواجهتى مستغرقاً فى سباته . أما الرجل الآخر فلم يكن بأقل منى دهشة . إذ رأيته يحملق فى الرجل صاحب المسدس ، وقد

بدت عليه سيماء من أوقظ فجأة فزعاً مرتاعاً .

ونظرت إلى الساعة فإذا بها الحادية عشرة . . وأدركت ببساطة أنى قد قضيت فى سباتى ما لا يقل عن ثلاث ساعات وكان القطار ممعناً فى سيره دون أن يبدو من النافذة أى أثر لأضواء أو علامات مميزة تدل على المكان الذى نمر به . بل بدا لى كأن القطار يطوى أكداساً من الظلمات .

وخيم على ثلاثتنا صمت لم يكن يشوبه سوى طرقات عجلات القطار المتتالية المنتظمة كأنها دقات الساعة . . وكان صمتنا مشوباً بقلق وتساؤل وتوتر فى الأعصاب . وأخذت أقلب البصر بين الركاب فرأيت الرجل الجالس قبالتى يعود إلى تراخيه ويمدد ساقيه ويلقى برأسه إلى الوراء ثم يغمض عينيه دون أن ينبس ببنت شفة وكأنما الأمر لا يعنيه فى شىء أو كأنه مفروض على ركاب القطار أن يتسلوا بإطلاق النار من مسدساتهم .

ولم أستطع أنا بالطبع أن أفعل كما فعل الآخرون ، فأتمطى فى مقعدى بهدوء وأعود إلى سباتى .

من يدرينى أن صاحب المسدس ليس مجنوناً ؟ وإن الطلقة الآتية ستستقر فى جوفى بدلا من أن تنطلق طائشة من النافذة ! ؟

لا .. لا .. يجب أن أكون حريصاً ، وألا أترك الرجل يعبث بمسدسه ، أو على الأقل أطمئن نفسى بالاستفسار عن سر هذه الطلقة التى أطلقها .

وكأنما أحس الرجل بقلقى وبأن عينى تحملقان فيه وتطلبان منه تفسيراً . فقد التفت إلىّ وهز رأسه مشيراً بالتحية ثم قال وهو يضع يده على جيبه :

— مسدس جيد .

ولم أعرف كيف أجيبه . فأنا لم أفحص المسدس حتى أعرف إذا كان جيداً أم لا . ولا أعرف كيف ينوى استعماله . ولا إذا كان من صالحى أن يكون جيداً أم غير جيد . ولكنى تجنباً لكل ما يثير الرجل لم أستطع إلا أن أوافقه بهزّة من رأسى وأنا أقول :

— يبدو كذلك .

— لقد اشتريته منذ مدة قصيرة لغرض خاص . إنى لم أمسك فى حياتى مسدساً قبل الآن . ولا كنت أعرف كيفية استعماله ، بل كنت أخشى الاقتراب منه . ولكن الظروف أجبرتنى على ابتياعه حتى أنهى به مهمتى .

— تنهى به مهمتك ؟

— سأقتلهما به . لا أظن المهمة ستكون شاقة .. حقيقة

إنى لا أجيد النشان . ولكن المسألة لن تحتاج إلى ذلك . فلن أحاول إصابة الهدف من بعد . لن يكون بيننا أكثر مما بينى وبينك . هكذا . .

ورأيت الرجل يخرج مسدسه من جيبه ثم يضع فوهته بمنتهى البساطة ملاصقة لمعدتى . . ويواصل حديثه :

ــ أجل . . لن تكون المسافة بيننا أبعد من هذا . هل تظننى أخطىء ؟

وأحسست برجفة وأنا أبصر فوهة المسدس تلامس جسدى ، وخشيت إن أتيت بحركة بها شىء من العنف ، أو صحت بالرجل ناهراً إياه ، أن تخرج الطلقة من المسدس وأردى صريعاً . ففضلت أن آخذ الرجل باللين وقلت له مؤكداً :

ــ لا .. لا .. إنك لن تخطئه أبداً . فقط أرجوك أن تبعد فوهة المسدس عن معدتى لأنها تسبب لى مغصاً .

وصاح الرجل مقهقهاً :

ــ لا تخف . إن سقاطة الأمان فى موضعها . أنظر . مهما ضغطت على الزناد فلن ينطلق .

وضغط الرجل على الزناد وهو ما زال مصوباً الفوهة إلى معدتى . ولم تكن هناك فائدة من الصياح

أوالهرب . وكل ما كنت أستطيع فعله هو الاستسلام . إن الرجل لا شك مجنون ولن تجدى معه سوى السياسة .

وحمدت الله أن جعل الزناد لا ينطلق فعلا . وحمدته كذلك أن جعل الرجل يعيد مسدسه أخيراً إلى جيبه .

وتنفست الصعداء ، وقلت للرجل :

ـ أمصمم أنت على قتلهما ؟

ـ أجل . كما قتلا ابنتى .

ـ قتلا ابنتك أنت ؟

ـ أجل ابنتى أنا . لقد تآمرا على قتلها . وراحت المسكينة ضحية نذالتهما وجبنهما .

وبدت على وجه الرجل علامات الحقد والغضب . . ورأيت مقلتيه تغرورقان بالدموع ، وبدا لى كأنما هو جاد فيما يقول .

وسواء كان جاداً أم لم يكن ، فما كنت أملك إلا موافقته فمددت يدى وأخذى أربت على كتفه وقلت له فى عطف ظاهر :

ـ هدىء نفسك وحاول أن تنام واسترح قليلا .

ـ أنام ! لقد مضى علىّ عشرة أيام وأنا لا أعرف طعم النوم . منذ أن واريتها الثرى لم يغمض لى جفن ولم يهدأ لى بال .

— ولكن أواثق أنت من أنهما قد قتلاها . . ؟

— أتظنني كنت أصر على قتلهما إذا لم أكن واثقاً ؟

— ولكن إذا كان الأمر كذلك فلمَ لا تبلغ أمرهما للقضاء وتتركه يقتص لك دون أن تعرض نفسك لعقوبة القتل ؟

— القضاء ؟ لا .. لا .. أنا لست أبله . إن إبلاغ القضاء لن يعني سوى الفضيحة لي ولها . أما هما فلن يستطيع القضاء أن يثبت عليهما شيئاً ، وإن أثبت فلن يكون لجريمتهما عقاب .

— إذا ثبت أنهما قتلاها فلن يكون لجريمتهما عقاب ! ؟

— أجل . . أمام القانون . لا عقاب لهما .

— لست أفهمك جيداً .

— لكي تفهمني جيداً يجب أن تفهم الحادثة جيداً .

كنت ذات يوم أجلس في داري . وأنا أقطن فيها مع ابنتي وخادم عجوز تدعى « أم أحمد » ترعى أمورنا منذ أن توفيت زوجتي ، وكنت أعلم أن ابنتي خرجت مع الخادمة منذ الصباح لقضاء بعض الحاجات . وكنت أتوقع أن تعود إلى الدار قبيل الغداء ، ولكن موعد الغداء حل دون أن تعود . وزاد بي القلق عندما انقضى اليوم وهي مازالت غائبة . حتى دقت الساعة السادسة فإذا بي أسمع وقع أقدام

« أم أحمد » وحدها وهى تصعد الدرج بطيئة متثاقلة ، وأقبلت عليها أسألها فى لهفة عن ابنتى فرأيت وجهها شاحباً وعيناها محمرتان وأنبأتنى فى صوت متهدج أنها قد أتت لأخذى إليها .

وكانت المرأة فى حالة إعياء شديد . ولم أستطع أن أستفسر منها عن حقيقة ماحدث ، ولكنى توقعت أن يكون قد حدث لابنتى حادث تصادم وأنهم حملوها إلى أحد المستشفيات .

وانطلقت مع المرأة فى إحدى عربات الأجرة وسألتها عن اسم المستشفى الذى وضعوها فيه ، فأنبأتنى أنها ستقودنى إلى هناك .

وهكذا أخذت المرأة تقود السائق وتعرج به يمنة ويسرة حتى وجدت نفسى فى شارع محمد على قرب القلعة . ثم عرجت بنا العربة فى أحد المنعطفات وظلت تتجول بين الأزقة والحارات وأنا حائر دهش ، حتى وقفت بنا أمام بيت حقير تفوح منه رائحة الحفونة وتتراكم على بابه أكوام القمامات . وقالت المرأة :

— إنها هنا . تعال .

ولم أملك إلا الانصياع ... فدخلت أتعثر وراءها

أخوض وسط القمامات وأتخبط فى الدرج الحجرى المتآكل.

ودفعت المرأة باباً خشبياً ودلفنا إلى صالة رطبة معتمة لا يبدو فيها أثر لأثاث . . ثم عبرناها إلى حجرة فى الناحية المقابلة للسلم . وهناك أبصرت ما صرعنى وسلبنى رشدى وأفقدنى صوابى .

وجدت ابنتى مسجاة على فراش قذر وقد أغمضت عيناها وشحب وجهها وبجوارها كومة من الملاءات مغرقة بالدماء والفراش نفسه قد تناثرت فيه بقع الدم الأحمر .

كل شىء فى الحجرة كان ملوثاً بالدماء .

وأحسست كأنى أوشك أن أهوى إلى الأرض .

وصرخت كالمجنون :

ـــ ما هذا ؟ وما الذى أتى بها إلى هنا ؟ .

وانبرت لى عجوز شمطاء من أقصى الحجرة تسعى كالحية الرقطاء وأنبأتنى أنها هى التى أتت بقدميها . وأنها هى التى سألتها الإجهاض . . وأنها غير مسئولة عن شىء . . فهذا قضاء الله . ولا راد لقضائه .

إجهاض ؟! كيف ؟ ! .

ونظرت إلى أم أحمد متسائلا وأنا أكاد أجن . .

فهمست المرأة فى صوت خافت :

ـ لا داعى ليكل هذا الآن . ليس هذا وقته . الأفضل أن نحملها إلى البيت . ربنا أمر بالستر .

ولم يكن أمامى سوى الرضوخ . فلا أقل من الستر على البنية الغريرة ! .

ولففناها فى ملاءة نظيفة وحملناها إلى التاكسى وأوصلناها إلى البيت .

وفى البيت فاضت روحها .

وهكذا تمت الوفاة بلا فضيحة وأنعم الله علينا بالستر فى اللحظة الأخيرة .

ووارينا الجثة التراب . . وتلقيت التعزيات وأنا بادى الهدوء ظاهر الصبر . ثم عدت أخيراً إلى البيت وقلبى يغلى بالثورة ويصطخب بالحقد .

كيف حدث ما حدث ؟ من المسئول ؟

وأمسكت «بأم أحمد» أستجوبها وأضيق عليها الخناق . حتى بدأت تفضى إلىّ بالحقيقة . . وأنبأتنى أنها لاحظت علامات الهم والقلق بادية على الفتاة ، وأنها أقبلت عليها ذات يوم فأنبأتها أنها تشعر بغثيان وميل إلى القىء . وفزعت المرأة . فقد أدركت أن ما بالفتاة علامات حمل . وكانت تحبها كابنتها . فحاولت أن تستدرجها لتعلم منها الحقيقة الواقعة .

ولكن الفتاة رفضت وقالت إن أمرها لو افتضح فستلجأ إلى الانتحار .

ولم يكن هناك بد من إنزال الحمل . وأخذت المرأة والفتاة يتدبران الأمر معاً فأنبأتها الفتاة أنها تعرف طبيب ولادة كان دائماً يحاول مغازلتها وهى تمعن فى صده . وهى لا تشك فى أنها لو ذهبت إليه فسينقذها مما بها ويتستر عليها .

وفعلا ذهبت الفتاة والمرأة إلى الطبيب فى بيته مبالغة فى التستر . والتقت الفتاة بالطبيب ، فأدهشه أن تحضر إليه فى داره وهى التى طالما أعرضت عنه وصدته .

وكان من العسير عليها ، وهى المتكبرة المعتزة بنفسها ، أن تعترف بزلتها لهذا الذى طالما احتقرته وترفعت عنه . وأن تسأله المعونة والإنقاذ .

وجلست فى كبرياء وأنفة تنبئه أنها تحس بغثيان وميل إلى القىء . ودهش الرجل من قولها واستطاع بنظرة فاحصة أن يفهم فيم مجيئها له وأن يدرك مدى حاجتها إليه . . فصمم على إذلالها وعزم على أن يأخذ الثمن .

وبمنتهى البرود قال لها :

ــ هذه أعراض حمل ؟

ــ أجل . .

ـ إذن فأنت حامل ؟

ـ أجل .

ـ وكنت تصدينني وتدعين الشرف والكبرياء والعفة !

ـ وما زلت . بالنسبة لك .

ـ إذن لِمَ أتيت إلىّ ؟

ـ لتجرى لى العملية .

ـ عملية الإجهاض ؟

ـ أجل .

ـ ولكنها عملية يحرمها القانون . أتعرفين ؟ .

ـ لا داعى لهذا اللف والدوران .. أتريد أن تجريها أم لا ؟

ـ تماماً كالشحاذ الذى يقول « حسنة وأنا سيدك » . إنى على استعداد لأن أهبك حسنة على أن أكون أنا سيدك وعلى أن أرغم أنفك الأشم .

ـ سأدفع لك ثمن العملية .

ـ أريد الثمن الذى أحدده أنا .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ لا أظنك تبخلين على منقذك من مصابك بما منحتيه

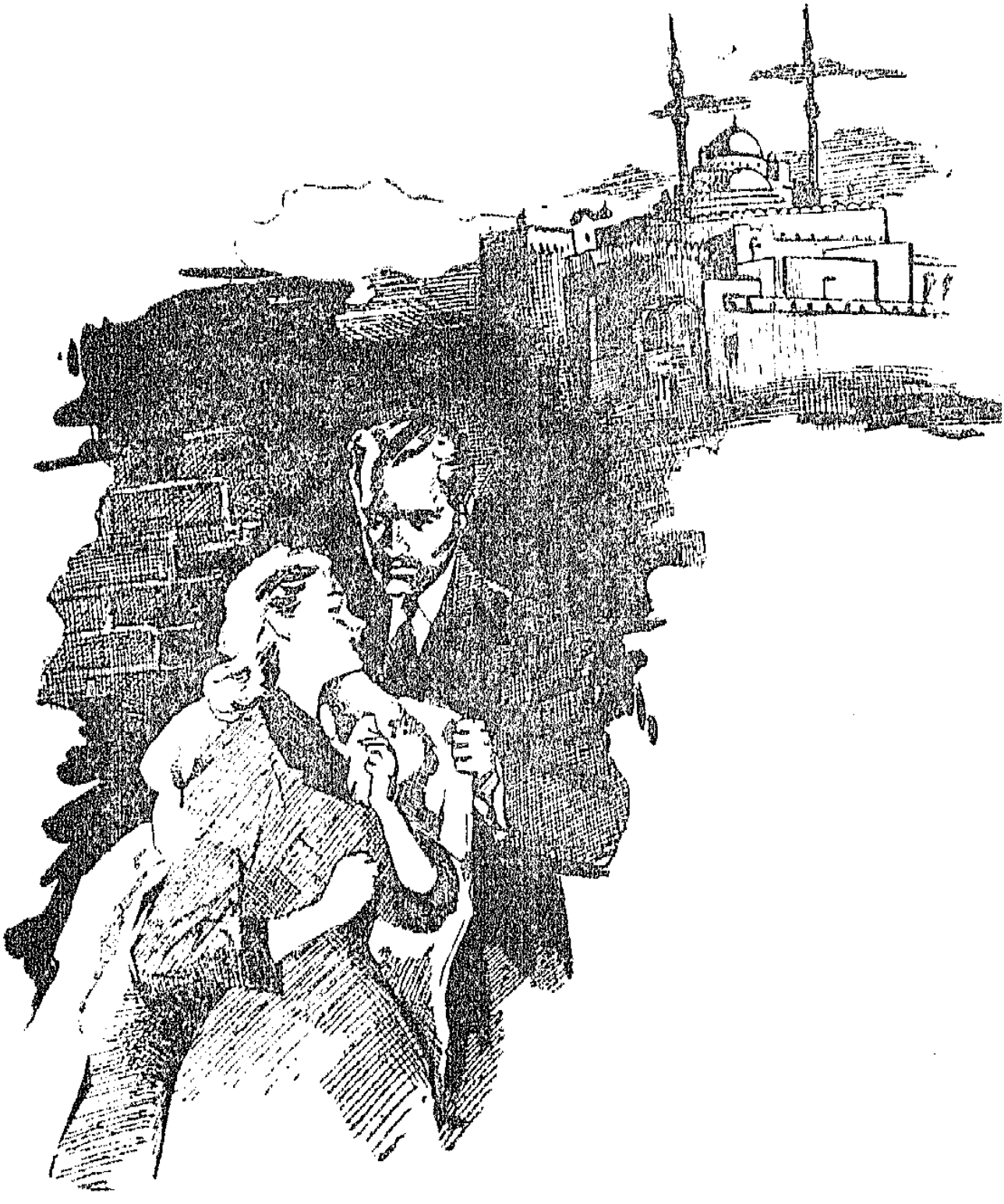

للذى وهبك المصاب . أم ترانى طلبت شيئاً كثيراً ! ! إن الجزاء من جنس العمل . ولا أظننا سنحتاج إلى إجراء عملية أخرى .

وكان هذا منتهى الإذلال . ولم تستطع الفتاة أن تحتمل أقوال النذل ، فرفعت كفها وهوت عليه بصفعة شديدة ثم غادرت الدار .

ولم يكن هناك وسيلة بعد هذا سوى الالتجاء إلى القابلة التى تعرفها أم أحمد ، وهناك كانت الخاتمة .

وصمت الرجل برهة ، ثم عاد يتحسس المسدس فى جيبه وأردف قائلا :

ـــ ولقد صممت على أن أنتقم ولا أستريح حتى أقتلهما : الآثم الأول والآثم الثانى .

أما الأول فانى لم أعرف عنه شيئاً بعد . ولكن أغلب الظن أن المرأة العجوز تعرفه ولكنها تصر على إنكارها معرفته ، وإنى أعتقـــد أننى ببعض الضغط أستطيع أن أعرفه منها .

ـــ والثانى ؟

ـــ الطبيب النذل المجرم . . الذى لولاه لما ذهبت إلى القابلة ولما سفك دمها فى الأزقة المنتنة العفنة . . ؟

ـ هل عرفته . . ؟ !

ـ أجل . لقد وصفته لى العجوز جيداً حتى انطبعت صورته فى ذهنى . وحتى بت أستطيع تمييزه بين آلاف الوجوه . سألتقى به عاجلا أو آجلا . وسأضع فوهة المسدس على جسده . هكذا . ثم أطلق . لا تخش شيئاً لقد قلت لك إن سقاطة الأمان فى محلها .

وعاد الرجل يضع فوهة المسدس على معدتى . ورغم أنه أخبرنى أن سقاطة الأمان فى محلها فلم أستطع أن أمنع رجفة سرت فى جسدى .

لقد باتت حياتى معلقة بسقاطة الأمان .

إن الرجل مجنون ما فى ذلك شك . وأغلب الظن أن قصته كلها من بنات الأوهام .

واستطرد الرجل قائلا :

ـ إنى أعرف أوصافه جيداً . إنه متوسط القامة .

ورأيت نفسى دون أن أدرى أحدق فى المرآة المواجهة . . خشية أن تنطبق أوصاف الرجل على فتكون الكارثة . . .

وعاد الرجل يتمم أوصافه قائلا :

ـ متوسط القامة . . أحمر الشعر . بوجهه كثير من

النمش ، وبصدغه الأيمن أثر جرح طويل .

وحمدت الله أنى لم أجد بشعرى حمرة ولا بوجهى نمشاً ولا بصدغى أثر جرح . ولكنى لدهشتى الشديدة وجدت الوجه الموصوف لا يبعد كثيراً عن وجهى الذى أبصره فى المرآة .

أجل . لقد كان هو نفسه أحد الرجلين الجالسين فى مواجهتنا . ورأيت جفنيه يرتجفان . ولم أشك فى أنه كان يسمع كل ما دار بيننا من حديث . وفتح عينيه فالتقيا بعينى الرجل صاحب المسدس وران الصمت لبضع لحظات . وتوقعت أن ينطلق المسدس . وأخذت أنتظر الدوى . ولكن حدث فى لمح البصر ، وقبل أن ينطلق المسدس أن أبصرت الرجل ذو الشعر الأحمر ينهض بسرعة ثم يقفز من نافذة القطار وتطويه الظلمات المدلهمة .

ورأيت صاحب المسدس ينظر إلى النافذة ثم يتنفس الصعداء ويقول :

ـــ هذا واحد . الحمد لله . لقد وفر علىّ مشقة إطلاق الرصاص . لا بد أن عظامه الآن تتهشم وتتفتت .

ولأول مرة أبصر الرجل الرابع الذى كان يجلس فى مواجهتى يفتح عينيه ويقول بهدوء وسخرية :

ـ تنهشم وتتفتت أيها الأحمق ! إن القطار يسير ببطء . إنه لا شك يقف الآن سليما معافى . اقفز وراءه وأردبه قتيلا . لا تدع فرصة العمر تفلت منك .

وفى ثانية أخرى أبصرت صاحب المسدس يقفز إلى النافذة ثم يقذف منها نفسه صائحاً :

ـ أجل . أجل . معك حق . . لا بد أن أجهز عليه .

وران الصمت ثانية . ثم سمعت الرجل الباقى يتنفس الصعداء ويقول :

ـ الحمد لله على أنه لا يعرف أوصاف الآثم الأول . لقد كان لا بد من ذهابه . وإلا . من يدرى فقد تنبئه عجوز النحس بها . . وتكون الطامة الكبرى . . الحمد لله .

ثم أغمض عينيه وعاود سباته العميق .

وهززت رأسى فى دهش وساءلت نفسى :

ـ أهكذا دائماً ينجو الآثم الأول ؟ .

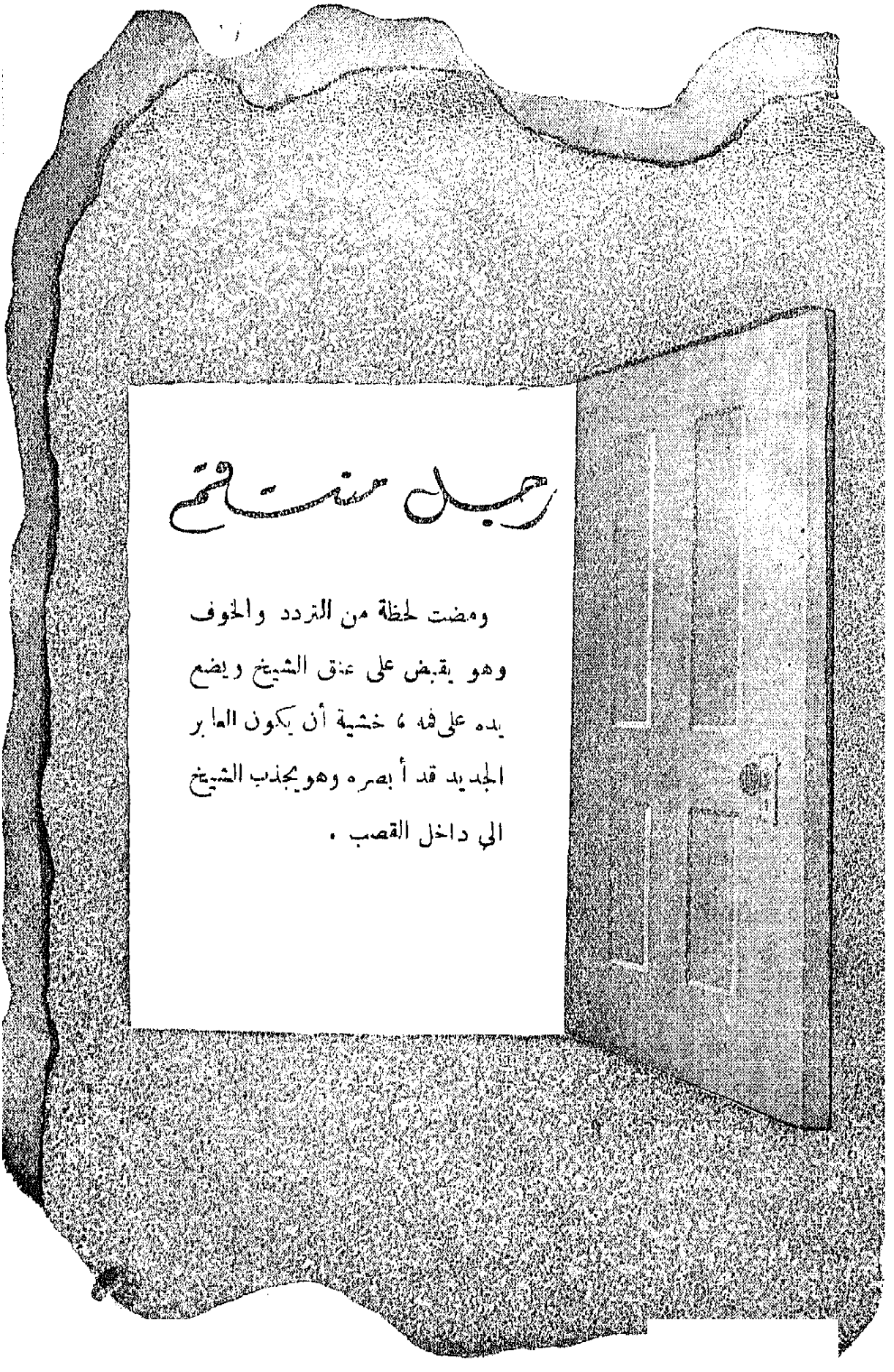

رجل متشائم

ومضت لحظة من التردد والخوف وهو يقبض على عنق الشيخ ويضع يده على فمه ، خشية أن يكون العابر الجديد قد أبصره وهو يجذب الشيخ الى داخل القصب .

الليل حالك . . والظلمة شاملة . . والسكون سائد . . والصمت مخيم .

وما من صوت هناك إلا فحيح الريح تدفع أمامها أطراف أعواد القصب ، فتميل أمامها فى أمواج متتابعة متتالية .

وبين الأعواد الخضر المتكاثفة . . أخذ شبح يتسلل فى الظلمة كأنه ذئب يسترق الخطى .

ولو استطعنا أن نكشف حجب الظلام لنستبين ملامحه لراعنا منه كثير من قسوة . . وكثير من عزم . . وكثير من شرود .

كان الرجل يوشك أن يبلغ هدفه ، هدف العمر الذى طالما حث الخطى للوصول إليه . . والذى تركزت لبلوغه جهوده وجهود أهله من قبله ، حتى أوشك هو أن يتم سعيه ولم يبق لتحقيق غرضه إلا النزر اليسير .

أجل ! بعد طول السعى والكد والحل والترحال . . قد وصل أخيراً ولم يعد بينه وبين الثأر سوى خطوات معدودات قصار .

الثأر ! لِمَ يتحرق إليه ؟ . ويتلهف عليه ؟ . إنه يشعر

بنشوة من مجرد الإحساس بأنه يوشك أن يقدم على تنفيذه ، والشعور بأن الساعة المرتقبة قد أزفت ، والأمل المرجو يوشك أن يتحقق .

إن السنين المتوالية لم تطفىء فى قلبه الحرقة المتأججة ، ولا استطاع الزمن أن يبرىء بالنسيان حزناً دفيناً ، ولوعة كامنة .

إنه يذكر أباه ومصرعه كما لو كان قد حدث بالأمس القريب ، يذكر رقدته على حافة القناة بين كوم الغاب والدماء الحارة القانية تنزف من جرح فى جانبه وتخضب ثيابه وهو يئن أنيناً خافتاً ، وأنفاسه تخرج من صدره متحشرجة متقطعة .

وفى صوت متهدج .. سأله أباه ألا يترك الثأر ، وأن يقتص من قاتله بيده ، وألا يدع دمه يضيع هدراً .

وكان يستمع إلى أبيه مشدوهاً مذهولا لا يكاد يصدق عينيه ولا أذنيه ، ولم يملك أن يجيبه بغير الانحناء عليه وضمه إلى صدره محاولا أن يبعد عنه عادية الموت ، سائلا إياه ألا يموت ويتركه وحده .

ولكن بعد لحظات لم يجد بين يديه سوى أذن صماء ..

وفم صامت مطبق . . وأطراف متداعية متراخية . . وجثة مسجاة لا حراك بها .

كان وقتذاك صبياً غريراً ، ولم يكن له بعد أن ماتت أمه سوى أبيه العطوف الحنون ، ولم يكن يطوف بذهنه قط أن أباه يمكن أن يذهب عنه هكذا — فى مثل لمح البصر — ويتركه وحده .

وأحس بالمرارة تفيض بنفسه .. لقد كان يعلم بالعداوة القائمة بينهم وبين أسرة مجاورة . وكان يعلم أن بين الأسرتين ثأراً قديماً ، ولكنه لم يخطر له على بال قط أن يذهب أبوه الطيب الكريم ضحيته !

إن أباه لم يرتكب إثماً حتى يقع عليه القصاص . ومن الظلم أن يحمل إنسان جرم إنسان آخر .

وجلس بجوار الجسد المسجى يبكيه بكاء مراً ، ثم أفاق لنفسه أخيراً فوجد أن البكاء لن يجدى نفعاً . فما هو بمعيد أبيه ، وماهو بمطفىء حرقته .

شىء واحد .. يستخلص لأبيه حقه . . وهو الذى يمكن أن يهبه العزاء ، وهو الثأر !

إنه لن يظلم أحداً كما ظلم أبوه ، ولن يأخذ بجرم القاتل إنساناً بريئاً ، بل سيوقع القصاص على القاتل نفسه !

ونهض من مكانه فى عزم وقوة ، ولم تشرق الشمس

عليه إلا وقد وارى أبيه الثرى .. وطوى فى باطن الأرض كل أثر لمصرعه .

وأصبح أهل القرية ، فإذا بثلاثة منهم قد اختفوا من القرية وعفت آثارهم ، القتيل والقاتل والآخذ بالثأر . . واحد يثوى ببطن الأرض ، واثنان يضربان متلاحقان فى ظاهرها .

لقد خرج يقتفى إثر غريمه .

ومنذ ذلك الحين وهو هائم شارد ، لايهدأ له بال ولا يقر له قرار . . وخرج بنفسه من زمرة الأحياء .. حتى بات كالشبح السارى أو الروح الضالة الهائمة .

ومرت السنون ، وهو يضرب هنا وهناك ، فى المشرق تارة وفى المغرب أخرى . . مقبل مرة مدبر مرة ، وفى كل خطوة يخطوها وفعل يأتيه . . ليس له من هدف سوى تعقب آثار غريمه والثأر منه .

ولم يكن له من خطة أو تدبير ، فقد كان كل ما يهدف إليه هو أن يعثر عليه . . أما طريقة الثأر فقد كانت عنده سهلة هينة ، لقد كان مصمماً على أن يرديه صريعاً أينما وحينما يجده ، بلا تفكير ولا تدبير .

إن كل ما يريده هو أن يشفى غليله بقتله . أما مايحدث

له بعد ذلك ، فكان أتفه من أن يفكر فيه .

إن مصير نفسه لم يكن يعنيه فى شىء ، أما مصير غريمه فكان هو كل شىء .. إن حياته لها قيمة ، لأنها ستضع حداً لحياة خصمه . . أما بعد ذلك ولغير ذلك ، فإنها هباء فى هباء .

واستمرت المطاردة يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر وعاماً بعد عام والحقد مستعر ، والضغينة متأججة ، لا هدوء ولا سكينة ، ولا نسيان .. كل تعب يهون مادام يقرّبه من هدفه ، وكل شقاء وشظف فى العيش يحتمل ما دام يدنيه من بغيته .

وأخيراً .. وبعد طول صبر وأناة ، ورحيل ومهاجرة بلغ الهدف ، أو قل أصبح منه قاب قوسين أو أدنى .

لقد وجد الغريم فى النهاية بعد مضى هذه السنين الطويلة شيخاً واهن العظم أشيب الشعر .. ولكنه كان هو . . هو الأمنية المنشودة ، والهدف المقصود ، الذى أجج الحقد ، وأطب البغضاء . . المجرم القاتل ، الذى أردى أباه صريعاً مضرجاً بدمائه ، والذى أفقده يانع عمره وأرقده بلا ذنب جثة هامدة بين الثرى .

لقد لقيه أخيراً بعد طول جهد وكثير مشقة وعناء ،

وكان قميناً وهو المتحرق شوقاً إلى الثأر بأن يرديه قتيلا في ساعته .

ولكنه لم يفعل !

لم يفعل ، وهو المتعجل المتلهف الذى كان يأكل صدره الحقد ، والذى لم يكن يبغى إلا قتل غريمه بلا خطة ولا تدبير ولا تفكير فى الهروب .

لم يفعل . . وهو الذى كان لا يعنيه مصيره فى شىء . . بل كان مصير خصمه — أو إنهاء مصيره — هو كل شىء .

لم يفعل لسبب واحد . . وهو أن مصيره هو قد أصبح يعنيه ! .

لم يفعل ، من أجل الأعين النجل .

الأعين النجل ! وجدائل الليل ! والوجه القمر .

كل ذلك قد جعله يعنى بمصيره ، وجعل لحياته قيمة .

لولم يصادفها قبيل النهاية لكان كل شىء قد انتهى ولكان القاتل قد لقى حتفه ، ولكان هو يقف فى شجاعة وهدوء ليقول للملأ : « أنا الذى قتلته لأنه قتل أبى . . لقد أخذته بذنبه ، وأخذ هو أبى بلا ذنب . . افعلوا بى ما شئتم ، خذوا حياتى ، فقد فعلت بها ما أردت . . أما ما تبقى فما عاد يعنينى فى شىء » .

لقد كان حرياً بأن يفعل ذلك ، ويقول ذلك . . أما الآن وقد لقيها . . أما الآن وقد أضحى ما تبقى من حياته يعنيه كما عناه ماسلف منها . . أما الآن ومصيره لم يعد ملكه بل أضحى ملكهما معاً ، فقد كان أجبن — أو أعقل — من أن يفعل ذلك .

لقد كان عليه أن يتروى ويتأنى .

إن الثأر لابد منه ، وقد بات فى يده . . ولكنه لم يكن هناك مبرر لأن يلقى بنفسه إلى التهلكة ، إذا كان يستطيع أن يبلغ أمنيته وهو فى مأمن ، ويردى خصمه وهو بمنجاة من العقاب .

كان الأمر سهلا . . فقد كان يستطيع أن يتصيد غريمه فى حلكة الليل وهو عائد وحده إلى داره بعد أن عرف موعده وعرف خط سيره وطريق مروره .

كان عليه أن يختبىء بجوار الساقية القديمة وسط أعواد القصب المتكاثفة . فإذا ما مر به الرجل فى الطريق الضيق الذى يمر وسط حقل القصب ، فليس عليه إلا أن يمد يده فيمسك بعنقه ويضغط عليه حتى يكتم أنفاسه ثم يلقى به فى الساقية القديمة الخربة .

وينطلق بعد ذلك لينعم معها بحياة هادئة ناعمة .

ودنت الساعة الرهيبة التى طال به انتظارها ، وأقبل الليل يرخى سدوله على الجريمة التى توشك أن تقع ، وسار متسللا بين أعواد القصب . وقد طافت بذهنه كل الذكريات الذاهبة ، وتراءت له عينا أبيه الخابيتان وصوته المتهدج يدعو للثأر ، وتراءت له بجوارهما الأعين النجل ، والصوت الناعم يدعوه لأن يترفق بنفسه . . وأن يذكر أن مصيره ليس ملكه .

واقترب من الساقية . . وخفق قلبه . . وهو الشجاع القوى .. وارتجفت أطرافه وهو الصلب الجرىء ، الثابت الجنان .. وهبت الريح فبعث فيحها فى نفسه نوعاً من الهلع لم يدر علته ، ولكنه تمالك وتماسك ، وهدأ من روعه ، وأزال من رهبته .

وجلس بين الأعواد الخضر يرقب وينتظر .

وزاده الانتظار قلقاً ورهبة ، ولكنه عاد يطمئن نفسه .

بضع دقائق أخرى ويستريح من عبئه . . بضع دقائق ويفى بوعده لأبيه . . ويجعله يستريح فى قبره . . بعد طول انتظار .

لقد بات الطير فى يده ، ولم تعد هناك قوة على الأرض تستطيع أن تجعله يفلت من مصيره المحتوم .

وأخذت الدقائق تمر طويلة مملة حتى خيل إليه أن الرجل قد عدل عن العودة أو غير طريقه .

ومد رأسه من خلال القصب يستطلع الطريق ، ولكن الظلمة كانت حالكة ، وكان موقفه بجوار الساقية فى منحنى الطريق ، فهو لايستطيع أن يبصر القادم إلا بعد أن يلف مع الطريق ، ويصبح على قاب شبرين أو أدنى .

وفجأة سمع وقع أقدام تقترب فأخفى رأسه بين الأعواد وأخلد إلى الصمت حتى كاد يوقف أنفاسه .

وازدادت الخطوات اقتراباً ، خطوات متثاقلة تصحبها عصا هى بلاشك عصا الشيخ .

أجل ! أجل ! إنه هو بعينه .

وأخيراً وصل الشيخ قبالته ، وتحقق هو من وجهه ومشيته .

وفى خفة الثعلب مد يده فقبض بها على عنقه ثم جذبه إلى الداخل واضعاً اليد الأخرى على فمه .

وقبل أن يبدأ فى الضغط على عنقه ، وصل إلى أذنه صوت أقدام أخرى . . أسرع سيراً وأخف وقعا ، كأن هناك من يريد اللحاق بالشيخ .

ومضت لحظة من التردد والخوف وهو يقبض على عنق

الشيخ ويضع يده على فمه ، خشية أن يكون العابر الجديد قد أبصره وهو يجذب الشيخ إلى داخل القصب . . ولكنه سرعان ما تغلب على تردده وخوفه . . وصمم على أن ينجز مهمته فى حزم وسرعة .

وبدأ فى الضغط والخطوات تزداد اقتراباً ، حتى بدا وكأنها اجتازت منحنى الطريق وأنها قد شارفت مكمنها . . وفجأة سمع صوتاً نسائياً ناعماً يشق أجواز الفضاء ، ويصيح منادياً فى لهفة :

ـ آبا . . آبا !

وبدا كأن صاحبة الصوت كانت تسير وراء الشيخ محاولة اللحاق به ، وأنها افتقدته فجأة ، وتبينت اختفاءه بعد منحنى الطريق ، فصاحت تناديه .

ووقع الصوت فى مسمعه وقعاً مخيفاً مروعاً ، لا لمجرد إحساسه بأنه صادر من ابنة تستدعى أباً يوشك هو أن يرديه صريعاً .

ولا لأن الصوت كان مفاجئاً وسط ذلك السكون المخيف .

بل لسبب أكبر من هذا .

لقد كان الصوت ، صوتاً مميزاً عنده ، صوتاً لا يخطئه كان صوت الأعين النجل . . ذلك الصوت الناعم الرقيق . . الذى كان يدعوه دائماً لأن يترفق بنفسه ويذكر أن مصيره لم يعد ملكه !

لقد كان الصوت الآن يدعوه لأن يترفق بغريمه وأن يهبه مصيره بعد أن أصبح فى يده ، ويترك الثأر الذى أمضى العمر فى الجرى وراءه !

ومضت لحظة وهو قابض على عنق الرجل .. ورويداً رويداً بدأ ضغط أصابعه يخف ، واستطاع الرجل أن يتنفس وأن يتكلم ، فصرخ مستنجداً بابنته :

واندفعت الإبنة لتنجد أباها .

ووقف الإثنان وجهاً لوجه . . وما زالت أصابعه قابضة على عنق الشيخ .. وما زال ذهنه حائراً يتخبط بين ثأر أبيه ، وبين الأعين النجل المتوسلة إليه .

لم يكن فى استطاعته التحدث . . فلقد بهره صوتها . . وسحرته عينيها .

وترك الشيخ يفلت من يده .

ونظر إلى الفتاة وقال هامساً :

ــ كنت أعتقد أنه ما من قوة على الأرض تستطيع أن

تنجى قاتل أبي من قبضة يدى . . أو أن تثنيني عن أخذ الثأر . . ولكنى لم أكن أعرف قوة تلك الأعين النجل . . عندما تتوسل ، ولم أكن أظن أننى سأصبح يوماً من قوم الشاعر القائل :

نحن قوم تذيبنا الأعين النجل
على أننا نذيب الحديدا

وهكذا جرف تيار الحب صخور البغضاء وعفا صاحب الثأر عن غريمه وعنقه بين أصابعه .

وتزوج الرجل ابنة غريمه . . ووضع حداً لخصومة دهر وعداوة عمر .

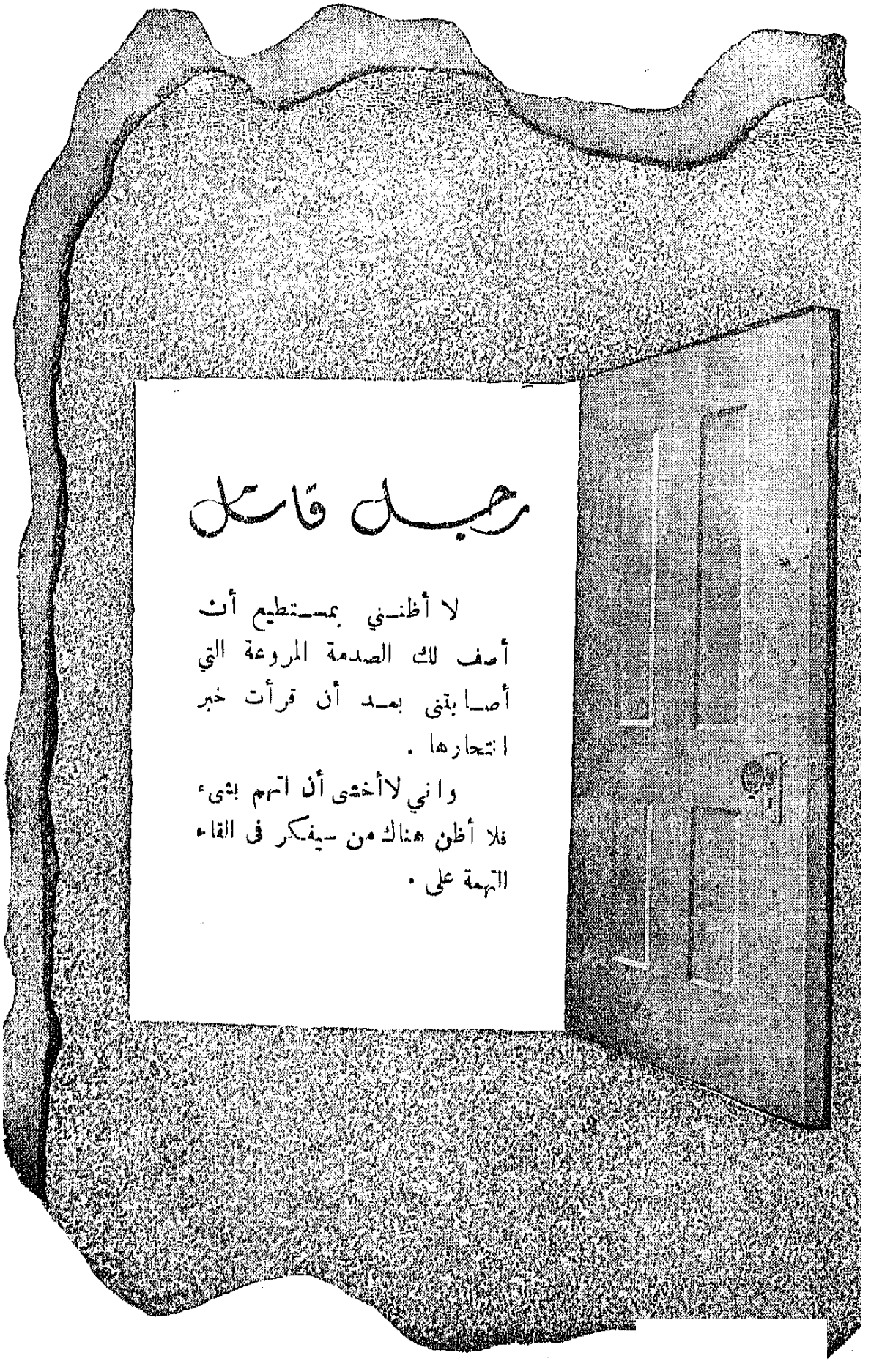

رجل قاتل

لا أظنني بمستطيع أن أصف لك الصدمة المروعة التي أصابتني بعد أن قرأت خبر انتحارها .

وانني لأخشى أن اتهم بشيء فلا أظن هناك من سيفكر فى القاء التهمة على .

هل أنا المجرم الأول ؟

و« أنا » هذه بالطبع غير عائدة علىّ .. فما أنا بمجرم أول ولا ثان ولا ثالث . . وما كانت لى بالجريمة المعروضة أية صلة . سوى صلة العرض والنصح .

أما صاحب الرسالة . . وصاحب السؤال . وصاحب الجريمة . . فهو الأخ « ع . ح » الطالب بأحد المعاهد الأمريكية .

ولقد كتب إلىّ من أمريكا . ليطلب المشورة . ولحت على الظرف طابع بريد الولايات المتحدة وختم بريد بنجامتون . . ولست أدرى جنسيته بوجه التحديد . . وإن كنت أرجح أنه عراقى . . فقد كتب إلىّ خطابه بتاريخ (٥ آب ١٩٥٠) وأنا دائماً يصلنى من أهل العراق خطابات مؤرخة بآب وآذار وغيرها من الشهور المحيرة التى حاولت حفظها عبثاً .

* * *

وقرأت رسالة الأخ وتوقفت أمام الخاتمة التى قال فيها :

« كم أتمنى أن تجيبنى على سؤال يكاد يكتم أنفاسى ويرهق حواسى . هل أنا المجرم الأول المسؤول عن مصرعها ؟ أم أن

دورى لم يكن سوى دور ثانوى . . جعلته المصادفات يبدو رئيسياً ودفعته الظروف إلى أن يحتل فيها مكان الصدارة ؟! أجبنى صراحة فإنى أرزح تحت عبء من الشك ثقيل مخيف ينوء به كاهلى وينقض به ظهرى .

لن أعطيك عنوانى . فلست أريد رداً خاصاً .. بل دعها تكون قضية عامة يشترك فيها قراؤك . . ولا أظن هناك مانعاً لدىّ من نشر كل ما كتبت لك . ومع أى تحوير أو تصليح تود إجراءه بشرط واحد . وهو أن تبقى على أساس القصة » .

ولست أظننى إلا مجيباً الأخ إلى مطلبه فى نشر رسالته بلاتحوير ولا تعديل .. اللهم إلا إضافة بعض التفاصيل ، التى تشوق القارىء ، والتى أبى هو ذكرها فى رسالته المقتضبة خوفاً من الملل .. ولقد اعتمدت فى روايتها على التجارب والخيال .. فعسى ألا أكون قد جانبت الحقيقة .. فإن كنت .. فليعذرنى .. وليعتبر هذه الإضافة من باب التحوير والتعديل الذى سمح هو به . وليتفضل بعد ذلك مشكوراً — إن كان ينوى أن يقدم على جريمة أخرى — أن يرسل لى كل التفاصيل عن جريمته الجديدة وليتفضل كذلك كل قارىء غيره يسألنى عرض قضيته ويطلب الشورى أن يذكر هذه التفاصيل التى

قد يعتبرها تافهة بلا خوف من ملل أو خشية من إسهاب .

* * *

سأكتب لك قصة حقيقية جرت حوادثها لغريب فى أمريكا ووضع القدر خاتمتها منذ أيام قلائل . أو يبدو أنه قد وضعها وإن كان الشك يساورنى فى أنه ما زال لها بقية .

إنها قصة طالب من الشرق وفتاة من الغرب ، ألف بينهما ما لا يقف فى سبيله شرق ولا غرب .. ولا يعترف بتقاليد ولا أجناس ولا أديان .

ألف بينهما جامح جارف جبار . . جامح من الهوى . جارف من الغرام . جبار من الحب .

لقيتها ذات مرة . . كيف . ؟ وأين . ؟ ومتى . ؟

وماذا تهم هـــذه الأشياء التافهة القيمة بالنسبة للقاء فعلا . . ؟

إن الزمن والمكان والظروف لم تعد لها قيمتها فى حب العالم الجديد .. العالم الصاخب السريع .

لم ألقها بالطبع فى روضة غناء فيحاء ، ذات ليلة هادئة النسيم ، خفاقة النجوم ، يسترق القمر فيها الخطى خلف منثور السحاب فيرسل أشعته فضية متقطعة .

لم ألقها بين عبق الزهور وشدو الطيور وحفيف الورق وترنيم الورق !

لم ألقها بين شيء من هذا كله . . فلا فجر ولا سحر ولا طير ولا زهر . . ولا أى أثر لهذه الأشياء التى تخرج بها جوك الشاعرى فى قصصك الغرامية .

لم ألقها فى جو شاعرى . . بل لقيتها فى جو عادى ملىء بالصخب والضجيج والزحام والمارة والحركة والأصوات المتنافرة .

ومع ذلك فقد أرهفت مشاعرنا . . تماماً كما لو كان اللقاء فى الروضة تحت القمر وبين الزهور .

إن كل هذه أشياء مساعدة أما الأصل . . أصل الهوى والجوى فكامن فى الصدور راقد بين الحنايا . ولو وضع العشاق فى الجحيم لما كفت قلوبهم عن الحب .

قرب اللقاء العابر بيننا . . بأسرع مما يتصور إنسان . . فقد صادف كل منا هوى فى نفس صاحبه . وكأننا قطبان مغناطيسيان متضادان . . لم يكادا يتقاربان حتى اندفع كل منهما تجاه الآخر .

وافترقنا على موعد . . ثم التقينا فى الموعد . . وقضينا

معاً فى نيويورك يومين وليلتين لم يشعر أحدنا خلالهما أنه يصاحب غريباً فرّقت بينهما المولد والنشأة والتربية والجنس والدين .. ولم يلتق وإياه بالأمس القريب . . بل كان يحس كل منا لصاحبه أنه رفيق عمر وزميل صبا .

لقد قضينا معاً فترة مليئة بالبشر ، حافلة بالأنس والمتعة . فترة مختلسة من السعادة ، مسروقة من النعيم .. نلت خلالها من الفتاة أقصى مايريد رجل من امرأة ثم عدت بها فى النهاية إلى بلدتها وأنا متخم ريان .

ولا أكذبك القول إذا ماقلت لك إنها لم تكن المغامرة الأولى ، بل إن مجرد قولى عنها مغامرة يعتبر مغالاة فى القول . فهذه النزهات مع الفتيات الأمريكيات كانت أشياء طبيعية متكررة دائمة الحدوث . وكنت أقضى معهن يوماً أو يومين ثم أعود بهن إلى دورهن أو بلدتهن . فأودعهن وينتهى بعد ذلك كل ما بيننا ونفترق كأن لم يكن بيننا لقاء ولا صلة .

لقد كانت صحبتى لهن دائماً تنتهى بفرقة عاجلة . . فإنى بطبعى سريع الملل . . لا أكاد أنال منهن مأربى وأقضى وطرى حتى يضيق صدرى بهن ، وتتملكنى السآمة من صحبتهن فأسرع بفراقهن .

أما هذه . . فلدهشتى الشديدة . . لم تكن كالسابقات .

لقد لقيتها كما لقيتهن . . وفعلت بها ما فعلت بهن . . ومع ذلك فما ضاق صدرى بها ولا أصابنى منها ملل ولا سآمة . . ولولا رغبتها فى العودة لما رضيت بفرقتها .

على النقيض . . إنى لم أكد أنال منها ما نلت . . حتى ازدادت رغبتى فيها ، واشتدت لهفتى عليها . . واستعر فى قلبى الشوق وتأجج الحنين ، ولم أفارقها إلا وأنا كاره للفرقة مشفق على نفسى منها .

وودعتها مرغماً . . ودعتها جسداً . . ولكنى لم أودعها قلباً ولا ذهناً . . فقد أبت صورتها أن تفارق ذهنى . . وأبى رسمها أن يودع قلبى ، وظلت على البعد باقية حاضرة تلح ذكراها على نفسى . . ويملأ طيفها رأسى ويملك تفكيرى .

ووجدتنى أفكر فى مسألتها تفكيراً جدياً ، وأسمو بها فى هذا التفكير عن كل من لقيت من غيرها من الصاحبات العابرات ، وأجعل منها نسيجاً وحدها ، ويزداد بى التفكير يوماً بعد يوم . . ويشتد الحب والشوق . . وتزداد خطوط رسمها عمقاً فى قلبى وفى ذهنى حتى تبيت وكأنها جزء منى لا يتجزأ ، وتصبح لدىّ شيئاً حيوياً وانتهى بى الأمر إلى أن تركز تفكيرى فى نقطة واحدة . . وهى الزواج .

أجل لقد سموت بها فى تفكيرى . . حتى وضعتها منى موضع شريكة العمر . . وتوأم النفس .

وذهبت إلى بيتها بعد أن عقدت النية على التقدم لخطبتها .

وفى بيتها لقيتنى مرحبة هاشة باشة .. وقدمت إلىّ شاباً فى ثياب جنود فرقة الـ « مرنيه » .

قدمته إلىّ على أنه فتاها .. أو كما يقولون هنا : عشيقها .

وباستفسار بسيط علمت أنها تعرفه منذ شهور طويلة ، وأنهما متفقان على الزواج منذ زمن .

وأصابتنى من قولها صدمة شديدة . . وأحسست فى صدرى بخليط صاخب من الغضب والغيرة والفجيعة واليأس .

وقد أكون خاطئاً فى غضبى وفى فجيعتى . . وقد تكون المسألة برمتها شيئاً طبيعياً . . كان يجب أن أنتظره وأتوقعه لا سيما ونحن فى بلد التحرر والانطلاق . . ولا سيما وأنا نفسى أنال ما أناله من الفتيات بمنتهى السهولة .

ولكن ماذا أقول للقلب الأحمق المجنون . . الذى أبى إلا أن ينطلق وراءها ويتشبث بها . . ويجعل منها شيئا ملكا له خاصاً به ؟ !

ماذا أقول فى النفس اللاهى والذهن المخدوع الجاهل . .

الذى أبى إلا أن يصور منها مخلوقة سامية لم تقع إلا فى حبائله ولم تفرط إلا له ! ؟

لقد كانت الصدمة شديدة والطعنة قاسية . . لا لأن الفتاة ظهرت لى بما لا يجب أن تكون عليه . . بل لأنها ظهرت لى كما لم يصورها به الذهن . . إنها هدمت قصور أوهامى . . وقوضت عرش أمانى . . وخذلت مشروعاتى خذلاناً شديداً .

ولم أفاتحها بالطبع فى خطبة ولا زواج . . بل مكثت عندها هنيهة واجماً مطرقاً شارداً . . ثم ودعتها وانصرفت .

وعدت إلى دارى مثقل النفس بالهموم والأحزان ، متعب الذهن ، مكروب الصدر ، وقضيت الليل مسهداً أتململ على الفراش أزفر جوى ووجداً .

وفى الصباح استقر بى الرأى على أن ألقى تلك الجمرات التى تتأجج فى صدرى ، وأن أذهب إليها فأفضى إليها بكل مافى نفسى وألقى إليها برأيى فيها . . وألطمها كما لطمتنى .

وذهبت إليها . . فلقيتنى بنفس البشاشة والترحيب ، وخلوت بها ، وبدأتنى بالسؤال عن سبب ذلك الحزن والوجوم البادى على وجهى فقلت لها فى صوت مرتجف :

— أنت السبب .

— أنا ؟ .

— أجل أنت .

— إنى لا أذكر أنى فعلت ما يغضبك ! .

— بل فعلت ما مزقنى وحطمنى . . لقد خدعتنى وغررت بى . . لقد بديت لى أسمى وأطهر وأجمل قلباً من سواك . . فوجدت نفسى أتردى فى هاوية حبك وأتشبث بك تشبث غريق بلوح من حطام سفينة . . وأتعلق بك تعلق مجنون . . لقد غررت بى فى اليومين اللذين صحبتك فيهما ومنحتنى ما ظننت أنك خصصتنى به وحدى ، وبدا لى أنك أحببتنى كما أحببتك ولم يخطر ببالى أنك مخطوبة توشكين على الزواج . . حتى أتيت بالأمس لأسألك الزواج منى ، ولكنى وجدت أننى كنت عندك مجرد أداء لهو وتسلية . . وأن صحبتك لى كانت إحدى الخيانات المتكررة التى تهدينها إلى فتاك المحبوب وخطيبك العزيز . . لقد جئتك لأقول لك حقيقة رأيى فيك ولأعتذر لك عن الحمق الذى دفعنى إلى أن أتوهمك بتلك الصورة التى توهمتك بها . . وعن الغرور الذى دفعنى إلى أن أجعل منك نسيجاً وحدك . . وشيئاً نقياً غير هذه القذارة التى خلقت منها أنت وسواك .

وبهتت الفتاة ، ولم تنبس ببنت شفة ووجدتها تطرق

برأسها وخيل إلىّ أنى ألمح فى عينيها طبقة من الدموع تترقرق .

أقول خيل إلىّ .. فقد يكون مارأيت سراب مخدوع .

وغادرتها بلا كلمة .. ولا تحية .

وسرت فى الطريق ، وأنا شاعر بأنى قد ألقيت عن كاهلى ما أثقله .. وعن صدرى ما أحرقه وأججه .

أجل ! لقد انتهى أمرى معها .. واستطعت أن ألفظ حبها مع الجمرات التى لفظتها من صدرى .

وتركت المدينة ذلك المساء عائداً إلى مكان دراستى .. موقناً بأن القصة قد وصلت إلى نهايتها .. وأنى وضعت بشورتى عليها خاتمة لها ، ولكنى استيقظت فى الصباح لأقرأ فى إحدى جرائد نيويورك .. إن الفتاة (ا.س) وعمرها تسعة عشرة سنة من كلية شيديور قد انتحرت بإطلاق النار على نفسها فى الساعة السادسة من صباح الأمس أى بعد مغادرتى إياها بمدة لا تتجاوز الاثنتى عشرة ساعة .. وقيل فى خبر الانتحار أن الأسباب لا تزال مجهولة .. ولكن المعتقد أنها متعلقة بخلاف مع أحد أصحابها العديدين وقد أصيبت بعده بنوبة يأس جعلتها تقدم على الانتحار .. وقد وجهت الصحيفة نداء إلى كل من زارها أو قابلها فى اليوم السابق للانتحار للاتصال بالمحقق .

ولا أظننى بمستطيع أن أصف لك الصدمة المروعة التى أصابتنى بعد أن قرأت الخبر .

وإنى لا أخشى أن أتهم بشىء .. فلا أظن أن هناك من سيفكر فى إلقاء التهمة علىّ . . بل لا أظننى سأخطر قط ببال أحد ممن حولها ، فما كانت علاقتى بها فى نظرهم سوى علاقة عابرة طارئة .

ليس هناك أحد يمكن أن يتهمنى . . إلا إنسان واحد هو أنا .

أنا يا أخى حزين ونادم ويائس .

حزين عليها لأنى ما زلت أحبها . . لقد تبدد من نفسى كل غضب عليها . . بعد أن ذهبت من دنيانا هذه . . وأصبحت أتلهف على رؤيتها وتقبيل يدها مرة واحدة . . وأتمنى أن أجثو على جدثها فأذرف عليه الدمع مدراراً .

ونادم . . لأنى أشعر بينى وبين نفسى . . أننى السبب فى موتها .

أتراه الغرور الذى يدفعنى إلى هذا الإحساس ؟ .

أتراها كانت تحبنى وأنى نزلت من نفسها منزلة من يدفعها غضبه عليها إلى الانتحار ؟ .

مهما يكن الأمر . . ومغرور كنت أم غير مغرور . .

إن ندمى شديد لأنى واثق من أنه حتى ولو لم أكن الوحيد فى حياتها الذى وهبته نفسها ، والذى فتحت له قلبها ، فإننى كنت الوحيد الذى صدمها برأيه فيها . . والذى واجهها بحقيقة صورتها .

وإنى يائس . . لأنى لا أستطيع أن أفعل شيئاً .

فلا أنا بمستطيع إعادتها إلى حياتها . . ولا أنا بمستطيع أن أسلو حبها وأنساها . . ولا أنا بمستطيع أن أكفر عن خطيئتى . . بل . . حتى هذه الخطيئة .

لست بمستطيع أن أقنع بها نفسى .

هل أخطأت ؟ .

هل كنت السبب فى قتلها ؟ .

هل كانت ثورتى عليها هى التى أودت بها ؟

هل ترانى كنت حقاً شيئاً هاماً إلى هذه الدرجة ؟ .

هل أنا المجرم الأول ؟ .

أجبنى يا سيدى . . إنى حائر تعس .

أكره أن أكون المجرم . . وأحب أن أكونه .

أكره أن أكون المجرم . . لأنى أكره الإجرام . . ولأنى أكره أن أكون السبب فى قتل هذه النفس الحلوة التى شغفت بها حباً .

ولكنى أعود فأتمنى أن أكون المجرم .. أتمنى أن أكون حقاً الإنسان المهم فى حياتها والذى أحبته إلى الدرجة التى بدفعها غضبه عليها إلى الانتحار .

أتمنى أن أكون كذلك . . حتى أوقن أنها كانت تحبنى ، وألا يكون انتحارها من أجل مخلوق آخر فى حياتها . . لا أعلم عنه شيئاً . . وألا أكون لديها إلا نسياً منسياً .

أجبنى يا سيدى . . أرحنى !

هل أنا المجرم الأول ؟

ليتنى أكونه .

المخلص

ع . ح

* * *

يا أخى ماذا أقول لك . . وأنت تتمنى أن تكون مجرماً . . حتى ترضى غرورك وكبريائك ؟

خل عنك أوهامك . .

أرح نفسك وانسها . . غفر الله لك .. ولها . وللمجرم الحقيقى .

فهرس

٦ نساء

صفحة

امرأة مغرورة ١١
« مخدوعة ٣١
« طيبة ٤٩
« آثمة ٦٣
« منتقمة ٨٣
« قاتلة ٩٥

٦ رجال

رجل مغرور ١١٥
« مخدوع ١٤١
« طيب ١٥٩
« آثم ١٧٩
« منتقم ١٩٩
« قاتل ٢١٥

شركة فن الطباعة